الكتاب الثالث

عهد جديد

« لقد قمنا فى وقت قصير بأعمال عظيمة مثمرة . وان أجل هذه الاعمال خطرا هو اعلان الجمهورية التركية التى ترتكز على بطولة الشعب وثقافته العالية . ويجب علينا أن نعمل على نجاح هذا الأثر معتمدين على ارادة الظفر الحديدية التى أظهرها شعبنا وجيشنا الباسل . ولكن هيهات أن نعد ما فعلناه كافياً ، فان من الواجب علينا وفى نيتنا ـ أن نقوم بأعمال أخرى وآثار أعظم من سائر آثارنا . لنرفعن وطننا فوق مهد سيكون أعظم أقطار العالم رخاء وأرقاها مدنية ، ولنتيحن لأمتنا أحسن الموارد وأغناها ، ولنمنحنها وسائل الرخاء والرفاهية ، ولنشيدن ثقافتنا الوطنية فوق مستوى المدنية المعاصرة »

كمال اتاتورك

اكتوبر سنة ١٩٣٣

obeikandl.com

رسول انقرة في استامبول

فجر ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢

ما بال استامبول تدفع بأهلها من مساكنهم الى الطرقات فى تلك الساعة المبكرة ؟

الطرقات تموج بالرجال والنساء والأطفال وفى يد كل منهم علم وصورة مكبرة لمصطفى كمال . وساحل البسفور لا تكاد تجد فيه موطئاً لقدم

والجميع يهتفون ويهللون ويكبرون . .

وتبزغ الشمس . ويرتفع الضحى . وتدق الساعة الثانية بعد الظهر . فتظهر من بعيد الباخرة « جول نهال » . .

وتمر بضع دقائق تخفق فيها القلوب بشدة . . وفى تلك الاثناء تدنو الباخرة من الميناء متهادية على صفحة الماء ، لابسة من الأعلام والاكاليل حلة الظفر . .

الحناجر تنطلق بهتافات تشق عنان السماء ، وتهتز لها صفحات الماء :

« يحيى الغازى مصطفى كمال باشا ! » . . « يحيى رأفت رسول انقرة ! »

آلاف من الزوارق تنطلق الى الباخرة وعليها عشرات الألوف من أهل استامبول ذهبوا يحيون رسول انقرة فى عرض البحر . وانك لتسمع لهم هتافات لن تنساها مياه البسفور أبداً . .

وتلقى الباخرة مرساها ، وينزل منها وحوله الألوف المؤلفة ـ رأفت باشا مندوب مصطفى كمال فوق العادة فى استامبول

رجل قصير جداً ، نحيل جداً ، فى بذلة عسكرية انيقة جداً ، على رأسه «قلبق» طويل جداً ، الابتسامة لا تفارق شفتيه ، والذكاء يتألق فى عينيه

ولا يكاد رأفت ينزل من الباخرة حتى يختفى فى خضم زاخر من الكتل البشرية الأيدى تمتد اليه وترفعه الى الأعناق فيرتفع ، ولكنه ـ لفرط صغر حجمه ـ لا يكاد يظهر من بين الجماهير الا اذا قفزت الى الهواء لتتبينه . .

« ياشا ! ! ياشا ! ! بيك ياشا ! ! »

شباب وشيب . رجال ونساء وأطفال . . الجميع فى نشوة الظفر سكارى وماهم بسكارى

الرصين منهم يقفز فى الهواء مصفقا مهللا . . فما بالك بغير الرصين ؟ !

طرقات استامبول تشهد من المواكب الحماسية ما لم تشهده أبداً ـ حتى فى عصر السلاطين واستقبال الغزاة الفاتحين !

ولا عجب ، فتلك عاصمة الاحتلال تستقبل رسول عاصمة الحرية . وهذا بلد الذل والاسر والهوان رفع النير عن كاهله فعاد ـ كما كان ـ حراً ، وبحريته سعيداً . وتلك نفوس كادت تزهقها أغلال العدو الغاصب أتيح لها الآن أن تتنفس الصعداء بعد أن قطع الرجاء

وتغرب الشمس فلا تغرب مواكب الجماهير . وتأوى ذكاء الى مضجعها ولكن هيهات أن تؤوى الجماهير المضاجع !

إنها ليلة فى العمر . فلا حرج عليهم أن يقضوها فى مرح وسرور وتهليل وتكبير..

المشاعل تحيل الليل نهارا . المنازل والمساجد تغرقها الثريات أنواراً . استامبول تتطلع إليها من عل فترى ـ وما أجمل ما ترى ! ـ ترى من الانوار المتألقة أنهاراً . .

* * *

وفى احدى طرقات « بيره » يرى فريق من الشبان الوزير السابق والصحافى اللاحق على كمال : الخائن المرتشى الذى طالما نادى بوجوب القضاء على الوطنيين وعلى الحركة الوطنية . فيختطفونه فى سيارة ويسيرون به إلى شاطىء البسفور حيث ينقلونه الى ازميت ويودعونه فى منزل حاكم المدينة نور الدين باشا

ومن منزل الحاكم يساق الخائن إلى السجن ، فلا تكاد الجماهير تراه فى حراسة الجند حتى تنهال عليه بصقا وضرباً ورجماً بالحجار فيموت الميتة التى يستحقها هو وأمثاله

ومصرع على كمال يصل الى مسامع وحيد الدين فيملأ الرعب قلبه ويتساءل : أهكذا اعتزم الوطنيون أن يعاملونا ؟

ثم يطلب من هارنجتون قائد جيش الاحتلال فى استامبول أن يزيد قوة الحرس الانجليزى الذى يحمى قصره ، فيوفد اليه صديقه الحميم عشرات من الجنود الانجليز

ولا يهدأ بال خليفة المسلمين بعد تلك الحماية ، فيطلب الى صديقه هارنجتون أن يتوسط له لدى رأفت باشا في تحديد موعد لمقابلته والتحدث اليه في شئون المستقبل ، فتحدد المقابلة في الساعة السادسة من مساء ٢٩ أكتوبر

وفى تلك الساعة يلج رأفت أبواب قصر يلدز ، ثم يدخل على وحيد الدين دون

أن يكترث بما يسمونه « البروتوكول » ، يدخل في ثوبه العسكرى والغدارة معلقة فى منطقته

ويقف الرجلان وجهاً لوجه :

هذا شيخ جاوز الستين من عمره ، قضى سنى ولايته للعهد فى عالم الحريم فنهل من عالم اللذات وكرع ، وأمضى سنى سلطنته في هزائم متتالية فتحت بها الحرب الكبرى ، وفى صراع دموى رهيب استهل به حرب الاستقلال ، فوافق على صلح مودروس ، وسلم للعدو المحتل بلاده وحل جيشها ، ورضى باحتلال أزمير ، وأمر كمالا بتسريح القوات الوطنية فى شرق الاناضول ، وقاوم الحركة الوطنيـة فى مهدها إذ سلط عليها العشائر الكردية والجاسوس الانجليزى ، وأباح دماء الوطنيين بمنشوره اللعين الذى وزعته الطائرات اليونانية على سائر بلاد الأناضول ، وقنع بمعاهدة سيفر وحكومة خفاشه الاسود ، وانضم إلى الانجليز واليونانيين طوال حرب الاستقلال .. وهو إبان تلك الحادثات لم يزل فى عالم الحريم واغلا وفى وهدة الخيانة متردياً وعلى فراش الذل والخنا متقلباً سعيداً . .

وذاك رجل دعاه وطنه فأجاب ، وبهره الجهاد فانبهر ، فقاتل ، فظفر . .

الرجلان يقفان وجها لوجه . فيحاول الخليفـة الخائن أن يستوضح رأفت رأى حكومة انقرة فيـه ، فيقاطعه رأفت بحدة قائلا : « سيدى ! الموقف الحالى لا يقبل التأجيل أكثر مما أجل ، ومحال أن تظل فى تركيا حكومتان احداهما فى استامبول والأخرى فى انقرة . فهل لك في أن تحنى رأسك أمام الأمر الواقع فتوقف هذا الازدواج الذى يتعارض مع مصالح البلاد بإقالة حكومة الباب العالى ؟ »

وحيد الدين يراوغ . . ويشرع فى التحدث عن الدستور وواجبه نحوه ، ويقول إن حكومة أنقرة لا تمثل البلاد تمثيلا صحيحاً . . ويقول أشياء كثيرة يختمها بالسؤال عن نيات حكومة أنقرة . فيصيح رأفت فى وجهه :

« ماذا تنتظر من الذين حكمت عليهم بالاعدام ! ؟ إن أغلبية المجلس الوطنى الكبير تأبى أن تقبلك سلطانا على تركيا بعد ما كان من صداقتك لاعداء الوطن . ومن يدرى فلعلها ترغب أيضاً فى إراحتك من سلطانك الروحى كخليفة للمسلمين ! ! »

وحيد الدين وجهه فى صفرة وجوه الموتى . . ولـكنه سرعان ما يستعيد رباطة جأشه فيقول إن مسألة الخلافة أخطر من أن يفصل فيها مجلس انقرة ، فهى مسألة

الشرق الاسلامى أجمع .. ثم يحاول أن يهدد رأفت فيقول : إن بقاء حكومة استامبول أمر لا مفر منه . . فيحز رأفت على أضراسه ويصيح :

« لا تنس يا سيدى أنك الآن فى يدنا . . أما وزراؤك فانهم إذا كانوا يصرون على البقاء فى مناصبهم ضد ارادة الشعب ، فمعنى ذلك أن حبل المشنقة معد لكل واحد منهم ! ! »

ويخرج رأفت . فيتهالك وحيد الدين على أحد المقاعد الوثيرة ، وتمر أمام الخليفة الأسود أشباح سوداء معلنة دنو الخاتمة . .

خاتمة السلطنة

أنقرة بعد الظفر . .

معالم الفرح توشك أن تزول ، وانك لتتفرس فى القرية فتراها كما كانت : منازل عتيقة ، وأكواخا حقيرة ، ووجوهاً شاحبة ظاهرة الاعياء

معركة السياسة تقوم بعد معارك القتال ، نواب المجلس الوطنى الكبير يتناقشون فى خير الطرق للحصول على معاهدة تعيد الى البلد استقلاله ، وزعماء المجلس يتطلعون بلهفة الى رئاسة وفد المفاوضة وعضويته

وعندما تبلغ أنباء استامبول انقرة ، ويتسامع النواب بتلك المقابلة التاريخية التى تمت بين وحيد الدين ورأفت ، يدب الشك فى نفوسهم ، ويتوجسون شراً من نيات كمال نحو الخلافة والسلطنة

نعم انهم يمقتون وحيد الدين ويلعنون عهده الأسود . ولكنهم لا يمقتون السلطنة ولا الخلافة . بل انهم لا يتصورون تركيا بدون سلطان وخليفة . وما كانت الجمهورية تخطر لأحد منهم ببال .

ورءوف بك الذى يكاد يرأس الآن حركة المعارضة فى المجلس ، يكثر من الهمس والغمغمة والمناورات السياسية . فيشعر كمال بأن فى جو المجلس شيئاً غريباً ، شيئاً ينكره العقل والمنطق وتنكره البرامج السياسية التى وضعها فى مخيلته ورسمها فى صفحة ذهنه

وفى ذات يوم يدخل عليه رءوف فى غرفته الخاصة فى المجلس الوطنى فى حالة

عصبية ، ويظهر له رغبته فى الافضاء اليه بأمور خطيرة ، ويدعوه للحضور الى منزل رأفت باشا والسماح لعلى فؤاد باشا بالحضور أيضاً ، فيقبل كمال الدعوة

وفى منزل رأفت يجتمع الأربعة : كمال ورءوف ورأفت وعلى فؤاد ، ويشرع رءوف فى الحديث فيقول إن المجلس قلق أشد القلق من جراء الاشاعة الرائجة عن الغاء مقام السلطنة ومحاولة هدم الخلافة ، وانه ـ أى رءوف ـ مرتاب فى خطط كمال المقبلة ويطلب منه بالحاح أن يطمئن المجلس ـ ببيان رسمى ـ على مقامى السلطنة والخلافة

مصطفى كمال يلعب دوره بمهارة فائقة ، فيعبث بشاربه قليلا ثم يشعل سيجاراً ويسأل رءوفا فى هدوء عن رأيه هو فى السلطنة والخلافة ، فيقول رءوف انه مرتبط حساً ووجدانا بمقام السلطنة والخلافة ، لأن والده نشأ فى ظلال نعمة السلطنة وأصبح من أركان الدولة العثمانية . وان ذرات من تلك النعمة تجول فى عروقه . وإنه لن يكون كافراً بهذه النعمة . وانه يشعر بواجب المحافظة على إخلاصه للسلطان . أما ارتباطه بالخلافة فمرجعه الى تربيته الدينية . ثم انه فضلا عن ذلك كله يرى استحالة تصريف الأمور فى تركيا بدون السلطنة والخلافة . . وأخيراً يقول إن محاولة إلغاء هذا المقام الجليل يؤدى ـ بلا شك ـ الى أعظم النكبات . . .

فيسأل رأفت عن رأيه ، فيقول انه يشترك فى الرأى مع رءوف . وانه لا يمكن التفكير فى أى شكل للادارة غير السلطنة والخلافة . .

فيسأل على فؤاد ، فيتهرب من الاجابة بلباقة قائلا انه عاد من موسكو أخيراً وليس فى استطاعته ابداء رأى قاطع فى هذه المسألة . .

ويسود الصمت المجلس بضع دقائق يشعر فيها كمال بخطورة الموقف . ولكنه رغم ذلك يعالجه ببروده ودهائه المعهودين ، فيقول متفرساً فى وجوه الحاضرين بنظراته الخفيفة ، ان المسألة التى يتحدثون عنها ليست مسألة اليوم ، وانه لا محل لقلق بعضهم فى المجلس

فيبدو على رءوف انه ارتاح لهذا الجواب . . ولكنه لا يقوم ليعود الى منزله بل يظل يتحدث فى نفس الموضوع ساعة بعد ساعة . . حتى ينتصف الليل . . ثم الى الصباح ! وأخيراً ينال من كمال وعداً بالقاء بيان فى المجلس يطمئن النواب القلقين . فيدون كمال بالقلم الرصاص بعض ما قاله خلال المناقشات ، ويعد بالقاء البيان

وفى نفس اليوم يلقى كمال البيان فيخيل إلى أعضاء المجلس أنهم سجلوا عليه وعداً صريحاً بعدم التعرض لمقام السلطنة والخلافة ، مع أنه لم يعد بشىء ، ولم يقل أكثر مما قاله لرءوف باك ـ وهو أن هذه المسألة ليست مسألة اليوم . .

ثم يجلس كمال فى مقعده فى المجلس منتظراً يوم السلطنة كما ينتظر اللاعب الماهر نهاية لعبة مضمونة النجاح

ويحين هذا اليوم إذ تصله من الصدر الأعظم توفيق باشا برقية يقول فيها : إن النصر « الذى أحرزناه بعونه تعالى ! » قد أزال أسباب العداء بين استامبول وانقرة ومهد للوحدة القومية . . وانه لم يبق فى البلاد عدو . ومعنى ذلك أن الخليفة لا يزال على عرشه ، وأن الواجب يقضى بالانقياد لأوامره . ثم يطلب اليه أن يوفد ـ على وجه السرعة ـ شخصاً يوثق فيه ليحمل الى الوفد المسافر من استامبول تعليمات انقرة ـ إذ أن الدعوة الى مؤتمر الصلح موجهة الى حكومتي استامبول وانقرة معا !

هذه هى القنبلة التى سينسف بها كمال السلطنة . . وها هوذا يثور إذ توجه الدعوة الى حكومة استامبول الخائنة التى لم تعد تمثل الا نفسها ، وإذ يرى الصدر الأعظم يتحدث عن النصر « الذى أحرزناه بعونه تعالى . ! » مع ان الخليفة وحكومة استامبول كانا حربا على الحركة الوطنية وشوكة فى ظهرها وسيفاً مصلتاً فى أيدى الاعداء

ومصطفى كمال يعرف متى يجب الصمت ومتى يجب الكلام والعمل ، فهو لذلك يقيم القيامة على حكومة استامبول ، ويستمطر عليها اللعنات ، ويستخرج من نفوس النواب عوامل الثأر الهاجعة ، ويعلن على الخونة حربا شعواء يتجلى فيها على حقيقته : رجل حرب فى ميادين القتال وفى عالم السياسة المضطربة . وانك لترى فى عينيه ذواتى البريق الذى رأيناه فوق مرتفعات غاليبولى وعلى شاطىء سقاريا . .

ومصطفى كمال لا يرحم . فهو لذلك فى صراع رهيب مع دعاة الابقاء على قوائم عرش مزعزع الأركان ، يريد ان يثله لينقض خرائب ينعق فوقها البوم . وانه لينتصر ـ كما انتصر دائماً وسينتصر ـ وانك لترى زعماء المعارضة يلتفون حوله ويسلمون له على طول الخط

المجلس ينعقد فى يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢

النواب ثائرون . والاعصاب متوترة . ومنصة الخطابة تهتز من تحت الخطباء الذين راحوا يتعاقبون فوقها منادين : الويل للخونة المارقين . .

وثمة بيانات تلقى . وتقارير تقدم بوجوب محاكمة وزراء استامبول بتهمة الخيانة العظمى ، لأنهم ـ بانتحالهم صفة ممثلى الأمة أمام مؤتمر الصلح ـ انما يطعنون الحركة الوطنية فى الصميم

وثمة تقرير طويل يقدم الى المجلس موقعاً عليه من اكثر من ٨٠ نائباً ـ بينهم كمال طبعاً ـ متضمنا انقراض الامبراطورية العثمانية وقيام دولة تركية جديدة لها دستور وحقوق مستمدة من الشعب نفسه . .

وفى ثورة النفوس وتوتر الأعصاب يوافق النواب على ما جاء فى هذا التقرير وهم لا يكادون يشعرون بأنهم انما قضوا على السلطنة بقرارهم هذا . بيد أن فريقاً من غلاة المعارضين يصيحون ملء أفواههم بأنهم لا يوافقون على القرار ، فيبتلع هتاف المجلس صياحهم وتطغى الاغلبية المتحمسة على معارضتهم الضئيلة

وفى ركن من أركان المجلس يجلس كمال كالساحر الرهيب يوزع نظراته المتألقة الملتهبة ذات اليمين وذات الشمال ويسجل على كل نائب حركاته وسكناته وأقواله تمهيداً للعقاب والثواب فى يوم موعده قريب

ثم يجتمع المجلس فى أول نوفمبر والحماس بالغ أشده . فيسعى كمال الى المنبر كما سعى من قبل إلى خط النار ، ويقف أمام النواب حديداً جليداً ، ويلقى عليهم خطاباً هو البيان والتاريخ والمنطق أجمع ،أعده للنواب فى الليلة السابقة ـ ولا ندرى بأية معجزة أعده ـ فيقول إن البشرية مرت بطورين : طور الطفولة والشباب ، وطور الرجولة واكتمال القوى الروحية والعقلية . وإن الطور الأول هو العهد الذى بدأ بآدم وتخلله الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد ، حتى إذا ما بعث نبينا الكريم بدأ الطور الثانى . ثم يحدثنا عن ميلاد محمد حديثاً يخلب الألباب ، ويقول إن مولده كان فى مثل هذا اليوم الذى يخطب فيه ، فما أجمل المصادفة السعيدة ! . .

ثم يصف لنا محمداً : وجه نورانى ، وكلام روحانى ، ورشد لا رشد بعده ، وصدق وحلم ، ومروءة ، وأمانة لا حد لها ، وفخر للعالم أى فخر

ثم يحدثنا عن ذاك الصراع الرهيب بين محمد والكافرين ، بين الكتاب والاصنام ، بين الروح والمادة الصماء ، بين الحق والباطل

ثم يقول إن محمداً انتقل الى الدار الآخرة بعد أن ترك للدنيا ديناً هو خاتمة الاديان وأصبح ـ برسالته العظمى ـ خاتم النبيين والمرسلين

ثم ينتقل بنا إلى انتخاب أبي بكر للخلافة ويطيل الحديث عن هذا الانتخاب ، ويعيد كلمة الانتخاب غير مرة عندما ينتقل إلى خلافة عمر . . ثم يحدثنا عن فتوحات عمر وشعوره بالانقلاب الشامل الذى سوف يتطور بالاسلام الى أمبراطورية واسعة النطاق ، ويصف لنا عمر التقي الورع الذى يخشى أن تؤثر الفتوحات والمدنية الدنيوية على روح المسلمين فيسأل حذيفة بن اليمان عن الباب الذى سيؤدى الى هذه الفتوحات ، هل سيفتح أم يتحطم ، فيقول حذيفة : بل سيتحطم . . فيقول عمر إنه إذاً لن يغلق بعد ذلك . .

ومن عجب أن يصل بنا كمال فى حديثه التاريخى هذا الى قمة النضج التاريخى إذ يصف فتوحات عمر ووفاته ، وانتخاب عثمان وما جره على الاسلام من نكبات ، وخلافة على وما دار بينه وبين معاوية من حروب ، وموقف عمرو بن العاص من أبي موسى الاشعرى ، ومصرع على ، وخلافة معاوية . . وهنا يحدثنا عن مبدأ ظهور السلطنة مع الخلافة ، تلك السلطنة الوراثية التى جرت على الاسلام أهول النكبات طوال تسعين عاماً اندثرت بعدها وظهرت على صفحات التاريخ الدولة العباسية ، دولة الملك والأبهة والترف والرخاوة ، دولة الخلفاء الذين كانوا يولون ارضاء لشهوات سياسية أو طائفية ، الخلفاء الماجنين السكيرين الهاجعين فى عالم الحريم بين الكأس والطاس والمحرمات . . وفى هذه الدولة لا يبقى للخلفاء من السلطنة شيء ، فقد انتقلت ـ أو كادت ـ الى الاتراك السلجوقيين ، ولا يبقى لهم من الخلافة شيء ، فمن العار أن يمثلوا دين الله وخلافة دين الله وهم أبعد ما يكونون عما أمر به الله والرسول . فما أشبه تلك الحال بحال الخليفة فى استامبول ، والمجلس الوطني الكبير فى انقرة !

ثم تمر القرون من بين شفتيه سراعا ، فيحدثنا عن قيام جنكيز خان فى أواسط آسيا واكتساحه الشرق والغرب ، ثم انحدار حفيده هولاكو الى بغداد وقتله الخليفة المستعصم ومحوه بذلك معالم السلطنة والخلافة من عالم الوجود . . وينجو المستنصر بالله ـ أحد ورثة الخلافة العباسية ـ من مذبحة بغداد بأعجوبة فيفر إلى مصر ويعتصم بها . وتمر قرون أخرى تتنقل فيها الخلافة بين بلاد المغرب ومصر ، وتقوم دول وتندثر أخرى ، حتى يركب السلطان سليم جواده ويدخل مصر ظافراً ، فيجد فيها ـ فيما يجد ـ رجلا هزيلا يكاد ينكره قومه ولكنهم يدعونه « خليفة المسلمين » ولا يستعملونه الا فى مواكب النصر ومعالم الافراح ، فلا يجد بأساً فى اغتصاب لقبه منه . ولكن سرعان ما تلهيه فتوحه عن التفكير فى أنه أصبح « خليفة للمسلمين »

ويرث عرش سليم سلاطين آخرون لا يكادون يفكرون فى الاستفادة من الخلافة، حتى يدب الانحلال فى السلطنة العثمانية ، ويظهر على مسرح التاريخ العثمانى سلاطين ضعفاء متخاذلون ، فيحاولون ستر ضعفهم باللقب الذى ورثوه عن سليم ولم يستفد منه أحد من آبائهم ، فيحيون ما اندثر ـ أو كاد ـ من معالم الخلافة ، ويهولون فيها ويفخمون حتى نصل الى عهد عبد الحميد فنجد السلطان الداهية يستغل لقب الخلافة إلى أقصى حدود الاستغلال ليسير به سلطنته التى بلغت أقصى حدود الضعف والهزال . .

ثم تنحدر الخلافة والسلطنة إلى وحيد الدين ، فيستغل لقب الخلافة فى التسليم للعدو بكل شىء ويسرح الجيش بأمر الخلافة ، ويتآمر مع العدو باسم الخلافة ، ويعد للوطنيين حبل المشنقة باسم الخلافة ، ويمحو تركيا من عالم الوجود فى معاهدة سيفر باسم الخلافة . .

(أصوات صاخبة : الويل لوحيد الدين ! !)

« هذا الرجل الدنىء يحاول القضاء على الوطن باسم الحكومة ، باسم السلطنة ، باسم الملكية ، باسم الخلافة . . . »

(أصوات مدمدمة : قاتله الله ! !)

« ولكن هيهات أن يضمحل الوطن أمام شخص كهذا نخر فى عظامه الاضمحلال من عهد بعيد . . »

(تصفيق حاد . .)

* * *

وهناك فى احدى غرف المجلس الوطنى الكبير تجتمع ثلاث لجان لبحث مسألة فصل السلطنة عن الخلافة : لجنة الدستور ، ولجنة الشئون الشرعية ، ولجنة الشئون القضائية

ويرأس هذه اللجان الثلاث الشيخ مفيد افندى : رجل عتيق الافكار ، غارق الى شوشته فى خضم من كتب الفقه لا يعرف لها براً . .

ويبدأ النقاش . . ويطول . . ويطول . .

والمشايخ المنتمون الى لجنة الشئون الشرعية يدعون أنه لا يمكن فصل السلطنة عن الخلافة . .

وأعضاء اللجان الأخرى لا يعارضون . .

وتمر ساعة بعدها ساعة والنقاش في تشعب مستمر . .

ومصطفى كمال الذئب جالس فى ركن من أركان الغرفة كالبركان يوشك أن ينفجر

وتمر ساعة أخرى . . فيثور البركان ، ويقف كمال الرهيب على المنصة فيبدو كالجبار المارد ، ويقول بصوت قاصف :

« اسمعوا . . ليست السلطنة أو الحكم من المنح التى تمنح بالنقاش على اعتبار انهما من ضرورات العلم ، إنما السلطنة تؤخذ قوة واقتداراً . . وقد سيطر آل عثمان على الشعب التركى زهاء ستة قرون قوة واقتداراً ، أما الآن فهاهوذا شعب يثور فى وجه مغتصبى حقوقه ويسترد منهم حقه المهضوم . هذا أمر واقع وليست مسألة ترك السلطات للشعب مسألة اليوم فهى مفروغ منها . وإنما مسألة اليوم هي : تقرير هذه السلطات ، وهذا التقرير لا شك واقع . وإلا فمن المحتمل قطع بعض الرءوس ! ! »

ثم يخفف من حدته قليلا فيشرح لأعضاء اللجان حقيقة الخلافة والسلطنة بجمل عسكرية مقتضبة ـ ولكنها مقنعة ـ فيقف النائب الشيخ مصطفى افندى ويقول بصوت مضطرب :

« معذرة فقد كنا ندرس المسألة من وجهة أخرى . والآن وقد ظهرت الحقيقة بما أدليتموه من بيانات فقد انتهت اللجان المشتركة من حل المسألة . . . »

وقانون فصل السلطنة عن الخلافة يعد بسرعة عجيبة تمهيداً لعرضه على المجلس الوطنى الكبير . .

* * *

مصطفى كمال يخرج من غرفة الاجتماع الى غرفته الخاصة فى المجلس . وهناك يستدعى رءوفا ويستقبله استقبالا عسكريا ويقول له بلهجة آمرة :

« سنفصل بين الخلافة والسلطنة ونعمل على الغاء السلطنة . أريد منك أن تلقى من فوق منبر المجلس بيانا تحبذ فيه هذا الأمر . . »

فيخرج رءوف دون أن ينبس ببنت شفة !

وهناك فوق المنبر يلقي رءوف بيانه فى حماس عجيب ، ويقترح اتخاذ يوم الغاء السلطنة عيداً من أعياد تركيا القومية ! !

* * *

١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢

أعضاء المجلس الوطنى الكبير يستمعون فى دهشة واستنكار إلى برقية رسمية وردت من استامبول هذا نصها :

« لقد اختفى وحيد الدين افندى من السراى هذه الليلة »

ثم تقرأ برقية أخرى هذا نصها :

« الحضرة السلطانية وضعت نفسها فى حماية انجلترا وغادرت استامبول على ظهر سفينة حربية انجليزية على الوجه المبين بالبلاغ الرسمى المرفقة صورته »

١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ إمضاء

« هارنجتون »

وفيما يلى نص البلاغ الرسمى :

« يعلن رسمياً أن الحضرة السلطانية قد طلب حماية الانجليز ونقله فى نفس الوقت من استامبول بصفته خليفة جميع المسلمين اجتنابا للخطر الذى يهدد حريته وحياته على أثر الحالة الحاضرة . وقد تمت رغبة الحضرة السلطانية فى هذا الصباح اذ ذهب الجنرال سير شارلس هارنجتون القائد العام للقوات الانجليزية فى تركيا لتسلمه ورافقه الى سفينة حربية انجليزية . واستقبله على ظهر الباخرة الاميرال سير دوبروك القائد العام لاسطول البحر الابيض . وزار السير نيفل هندرسون المندوب السامي الانجليزى الحضرة السلطانية فى السفينة واستفهم عن رغباته لابلاغها الى جلالة الملك جورج الخامس »

مصير وحيد الدين

ماذا حدث في استامبول ؟ وكيف فرّ الخليفة ؟

ان لهذا الفرار قصة يحلو لى أن أرويها للقراء :

فوحيد الدين لما صمم على أن يرسل وفداً عنه الى لوزان ، كان يعمل بوحى من صديقه هارنجتون الانجليزى . فلما ثارت أنقرة وتحدى كمال الصدر الأعظم توفيق باشا وشعر الانجليز بان وراء الأكمة ما وراءها ، أعلنوا حيادهم وتركوا وحيد الدين فى حالة من اليأس لا يحسد عليها !

بيد أن الخليفة الأسود يأبى الا أن يقاوم . فيظل متمسكا بحكومته ثلاثة أيام

متواليات رغم الغاء سلطنته . ولكنه يتخاذل فى اليوم الرابع فيشير على توفيق بالاستقالة ، فتشهد بوابة « يلدز » الكبيرة آخر مظهر من مظاهر السلطنة فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٤ نوفمبر ، إذ يخرج توفيق من لدن مولاه مستقيلا

وفى اليوم التالى تبدأ حاشية الخليفة فى الانحلال السريع . . وتصل أنباء مقلقة من أنقرة . . ويصور الوهم لوحيد الدين أن حبل المشنقة فى انتظاره . فيصمم على الفرار . .

ووحيد الدين يستدعى زكى بك مدير فرقة الموسيقى الشاهانية وينفرد به فى احدى غرف قصره بعد أن يغلق الأبواب ويسدل الستائر ، ويهمس فى اذنه بأن خليفة المسلمين قد اختاره من بين حاشيته ليؤدى له الواجب الأخير . فيعلن زكى بك استعداده لخدمة مولاه فيأمره وحيد الدين بالذهاب سراً الى منزل الجنرال هارنجتون ومفاوضته فى أمر الاحتماء بانجلترا والفرار على احدى بوارجها الراسية فى ميناء استامبول . .

زكي بك يذهب لأداء واجبه . فيقابله هارنجتون ويقول انه لا يمانع فى حماية الخليفة ومساعدته على الفرار . ولكنه يرجو منه أن يكتب بذلك طلباً كتابياً يوقعه بامضائه الشريف . .

فيعود زكي بك الى مولاه ويبلغه أوامر هارنجتون . فيكتب الخليفة الطلب بيده ويوقعه « محمد خليفة المسلمين » . .

وتمر ايام فى مفاوضات بين هارنجتون ولندن . وهذه الأيام يقضيها وحيد الدين فى يأس ورعب لا حد لهما ، ويرى بعينى رأسه كيف ينفض أتباعه من حوله ، وكيف يزول الباطل أمام الحق القوى . .

وفى يوم الجمعة ١٠ نوفمبر يذهب ليؤدى فريضة الجمعة على جارى عادته . فيمر فى طريقه الى المسجد في طرق خاوية . ويقبض صدره انحلال موكبه الفخم الذى اعتاد الخروج فيه

وفى المسجد يقف الخطيب على المنبر داعياً لخليفة المسلمين دعاء فاتراً لا يردد المصلون بعده كلمة آمين . أما « سلطان البرين وخاقان البحرين » وما الى ذلك من ألقاب السلطنة فلا يسمعها الخليفة

والعود من المسجد عود سخيف فاتر . .

وهو إذ يدخل حجرته الخاصة يجد خطابا من هارنجتون يحدد فيه موعد الفرار

وفى اليوم التالى : ١١ نوفمبر ، ينتقل مع ابنه الصغير أرطغرل وكبير أمنائه وزكي بك والدكتور رشاد باشا وبعض الخدم والأغوات الى « كشك المراسم » حيث يقضون الليل ساهرين بعد أن كدسوا فى الحقائب ما خف حمله وغلا ثمنه من جواهر السلطنة العثمانية وتحفها الذهبية ـ الا أرطغرل فقد نام على الفراش الذى نام عليه من قبل امبراطور المانيا فى زيارته لعبد الحميد . .

نام وهو لا يشعر بأنه على وشك مغادرة العاصمة التى ولد فيها وكان مقدراً له أن يجلس على عرش سلطنتها وخلافتها فى يوم من الأيام

وفى الساعة السادسة صباحاً ـ والظلام لا يزال دامساً ـ يخرج من « كشك المراسم خليفة المسلمين وأتباعه ، ويستقلون سيارتين من سيارات الصليب الأحمر الانجليزى الى الميناء ، وتتبعهما سيارات أخرى فيها الحرس الانجليزى

وفى الطريق ينضم اليهم هارنجتون صديق الخليفة

وفى الميناء ينزل وحيد الدين : شيخاً محطم الأعصاب ظاهر الخوف ، فيسير بخطى مضطربة الى حيث رست البارجة الجبارة « ملايا » . .

وقبل أن يستقر فيها يفتقد شيئا . . فيعود الى الجمرك مسرعاً ويبحث عن حقيبة الجواهر ، فيجدها هناك فى احدى القاعات ، فيعود بها الى البارجة ويفتحها ليطمئن على ما فيها . .

ويستقبله الاميرال سير دوبروك القائد العام لأسطول البحر الأبيض استقبالا رسمياً ، ثم يتقدم اليه السير نيفل هندرسون المندوب السامى البريطانى فى استامبول ويسأله عن رغباته ليبلغها الى ملك الانجليز ، فيشكر له وحيد الدين عطفه ولمليك الانجليز كرمه

ثم تهم البارجة بالرحيل فيودع وحيد الدين صديقه الحميم هارنجتون

وتتحرك البارجة :

ها هى ذى استامبول عاصمة السلطنة العثمانية منذ محمد الفاتح تختفى عن الانظار

ها هى ذى غاليبولى حيث هزم كمال الحلفاء

ها هى ذى أزمير التى سلمت لليونانيين بأمر من الخليفة

ها هو ذا رصيف أزمير حيث فر آخر جندى يونانى

ها هى ذى مياه البحر الابيض المتوسط

لقد اختفت تركيا عن أنظار وحيد الدين الى الأبد ، واختفى شبح السلطان الاسود . . الى الأبد ! *

عصمت في لوزان

« بعد الحرب ياباشا يجب أن تستريح . . فقد أجهدت نفسك أيما اجهاد . . »

هذا ما قالته خالدة أديب لمصطفى كمال قبيل دخوله أزمير ، وهذا ما كان يقوله كل سياسى فى المجلس الوطنى الكبير

مصطفى كمال ، وعصمت ، وفوزى : هم الثلاثة يجب أن يستريحوا ، أو بعبارة أخرى : يجب أن يتركوا الميدان لرجال السياسة فقد ختمت الحرب العسكرية وبدأت الحرب الدبلوماسية !

وفى أزمير ـ وقبل صلح مودانيا ـ تصل كمالا برقية من هيئة الوزراء فى أنقرة يفهم منها أن عمله فى السلك الحربى قد انتهى ، وان رئيس الوزراء رءوفا يستدعيه الى أنقرة على وجه السرعة ، فلا يعترف بانتهاء عمله طبعاً ، ويبعث هو فى استدعاء رءوف الى أزمير !

وعند عودته الى انقرة يجد ـ فيما يجد ـ ان الاجماع يكاد يكون معقوداً على إيفاد رءوف الى مؤتمر الصلح كرئيس لهيئة المفاوضين . . ومصطفى كمال يعتقد ان الوفد الذى يرأسه رءوف لا ينجح ، لأنه لا يكاد يفرق بين مشاعره وواجباته ، الا أن رءوفا يصر على الرئاسة ، ويحاول ـ ارضاء لكمال ـ أن يعين عصمت مستشاراً له . فيقول كمال ان الفائدة تكون أعظم لو أصبح عصمت رئيساً للوفد ، فلا يقتنع رءوف برأيه هذا ، ويظل يقوم بالدعايات السياسية لنفسه

وفى تلك الأثناء يؤدى عصمت مهمته فى صلح مودانيا على الوجه الأكمل ، ويذهب الى بروسه ، فيلحق به كمال هناك ويشرع فى استجوابه عما تم فى مودانيا ،

---

* تساءل الناس بعد فرار الخليفة : لم لم يقتله مصطفى كمال جزاء خيانته ؟ وجواباً عن ذلك نقول إنه أشفق على وحيد الدين أن يصبح ضحية من الضحايا وشهيداً من الشهداء في نظر بعض ذوي القلوب المريضة ، فأراحه من الاعدام ، واستراح منه ، وأتاح له الفرار في حمى الانجليز فختم حياته بخاتم الخيانة التى لا خيانة بعدها

فيقتنع تماما بكفاءته السياسية ويصمم على أن يعينه رئيساً لوفد المفاوضة

وفى هذا اليوم بالذات يبرق الى يوسف كمال وزير الخارجية راجياً منه أن يستقيل ليعين عصمت بدله تمهيداً لايفاده رئيساً للوفد ، فيستقيل الوزير عن طيبة خاطر معلناً انه يحبذ الفكرة

وفى ذات يوم يربت كمال على كتف عصمت ويقول له بلهجة الامر الواقع إنه أصبح وزيراً للخارجية ورئيساً لوفد المفاوضة . . .

فيظهر التردد والحيرة على وجه عصمت ، ويشرع رجل الحرب فى الاعتذار عن قبول المنصبين بأنه جندى ـ والجندى قد لا يجيد تعاطى السياسة ، فلا يوافقه كمال على رأيه ، وعندئذ يقول عصمت بلهجة عسكرية :

ـــ اذاً أنا أقبل الاقتراح كأمر عسكرى . . .

* * *

وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ينعقد مؤتمر الصلح فى لوزان ، ويجلس الرئيسان : كيرزون رئيس وفد الحلفاء ، وعصمت رئيس وفد انقرة ، وجهاً لوجه

وكيرزون هذا لورد انجليزى بغيض الصلف عتيق الافكار ، ما جلس فى مؤتمر قط الا حاول أن يفرض أفكاره على العالم فرضاً ، فكان يفشل على طول الخط ، ويكون موضع سخرية المتفاوضين

وهو فى هذه المفاوضات بالذات يتعن فى الصلف والارستقراطية ، ولا يخطر بباله انه يفاوض وفداً وراءه جيش جرار يحمل لواء النصر . فيقابله عصمت ببرود سياسى يكاد يصرعه ، ويتعمد الصمم عندما يسأله أسئلة سخيفة ، ويتجاهله كلما دمدم وضرب على المائدة بقبضته ، ويعبث بطرف المائدة ويسرح ، حتى اذا ما فرغ صاحبنا من بياناته السقيمة راح يعرض عليه أقصى ما يطمع فيه من شروط الصلح . . فيثور . . فينظر اليه عصمت ببرود وفتور . .

وتمر أسابيع وشهور وكيرزون لا يزال بغيض الصلف فاشلا فى مهمته كدبلوماسى يمثل بريطانيا . وفى لندن يثور الرأى العام ويطالب حكومته بانهاء المهزلة التى تردت فيها عندما ساعدت اليونانيين فى حربهم مع الاتراك ، وعندما أمرت بابقاء أسطولها فى مياه استامبول بعد أن فقدت كل أمل فى احباط الحركة الوطنية

والواقع أن موقف كيرزون أمام عصمت كان موقفا أقل ما يقال فيه أنه مزر

بالدبلوماسية البريطانية التى اشتهرت بالتهرب فى ساعة الخطر والتسليم بكل شىء للقوى المعتد بقوته . .

كمال يؤسس حزباً سياسياً

المجلس الوطنى الكبير يدخل فى سنته الأخيرة . والانتخابات الجديدة قاب قوسين أو أدنى

مصطفى كمال يشعر بأن أمامه صراعا سياسيا رهيبا ، فعناصر الرجعية توشك أن تلعب بذنبها ، وفى المجلس الوطنى حركة معارضة واسعة النطاق الغرض منها مقاومة مصطفى كمال السياسى وساعده الايمن عصمت

ومصطفى كمال رجل يعرف من أين تؤكل الكتف . فهو يغادر انقرة بخيرها وشرها فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٣ وفى نيته أمران : الاتصال بالشعب اتصالا مباشراً ، وتحويل جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول الى حزب سياسى . فيزور معظم ولايات الأناضول ويطلب من الجمهور أن يوجه اليه ما يشاء من أسئلة فى مختلف شئون السياسة ، ويلقى محاضرات طويلة فى كل بلد يمر به ، وبذلك نراه ينقلب رجل سياسة بعد أن كان إلى الأمس القريب رجل حرب

وبينا هو فى ازميت يقوم بالدعاية السياسية لحزبه الجديد ، إذا به يسمع أن أحد نواب المجلس الوطنى : الشيخ شكرى افندى وزع على النواب وعلى سائر الولايات التركية نشرة سياسية دينية عنوانها « الخلافة الاسلامية والمجلس الوطنى الكبير » ، وقوامها « أن الخليفة للمجلس والمجلس للخليفة » ، وأن الخلافة « حكومة عينية وليس فى وسع إنسان أو مجلس أن يبطل حقوقها وواجباتها » . . وأنه لا بد من توحيد الشرق كله تحت لواء الخلافة الحاكمة . .

نشرة لا شك أنها بالغة الخطورة والسخافة . فالخلافة التى اثبت كمال انقراضها وانحلالها بالبراهين التاريخية التى لا تقبل جدالا هى التى ستحكم الآن ، وستحكم جامعة إسلامية قوامها ثلثمائة مليون مسلم ، وتدير شئون الأمم ، وتعمل على تنفيذ المشروعات النافعة وتدافع عن حقوق المسلمين كافة ، وترد عنهم عدوان الدول الأجنبية . . ! أو بعبارة أخرى ان تركيا التى خرجت من الحرب الكبرى محطمة واهية القوى

ناضبة الموارد هى التى ستكون زعيمة الشرق الاسلامى كله ، وهي التى ستدافع عن الشرق كله ، وهى التى ستشمل بتاج خلافتها الاسلام كله ، والاستعمار كله ، والتعصب كله . .

فان لم يكن هذا سخافة فأين هى السخافة بعد ذلك ؟

وهل استشير الشرق الاسلامى فى هذه السيادة ؟ وهل يقبلها إذا هو استشير فيها ؟ فاذا لم يقبلها واعتد باستقلاله فأين هى القوة التى ستخضعه لتاج الخلافة ؟ واذا قبلها فكيف تتحمل تركيا الممزقة المحطمة اعباء خلافة حاكمة لم تتح لأحد من الخلفاء قط بعد أبى بكر وعمر ! فاذا لم تكن الخلافة حاكمة مهيمنة على شئون الشرق ، فما فائدتها ، وهلا يكون وجودها كعدمها ؟ والغرب المستعمر المتعصب : ألا يقيم على هذه الخلافة حربا شعواء ويعمل على ألا تقوم لها ـ ولا للشرق التابع لها روحياً أو سياسياً ـ قائمة بعد الآن وخاصة بعد أن خرج الشرق من الحرب العظمى مجزأ موزعا بين انجلترا وفرنسا وايطاليا ؟

مصطفى كمال يبشر بهذه المبادىء بين طبقات الشعب الذى تغلغت الخلافة فى ذرات دمه ، ويشعر وهو واقف أمام تلك الكتل الصماء من التعصب الساذج أنه مستهدف لخطر شديد ، ومع ذلك فهو لا يخاف ، ولا يتردد ، بل يحمل على الخلافة الحاكمة حملات صادقة فيلقى من الجماهير آذانا صاغية ، ولا يترك بلداً من البلدان حتى يترك فيه آلافا من المتحمسين لآرائه السياسية والدينية

وكلما ربح منشور شكرى افندى ولاية من الولايات ربح كمال بجولاته السريعة وخطبه البارعة ولايات بأكملها . . .

* * *

وفى استامبول نرى الخليفة عبد المجيد الذى انتخبه المجلس الوطنى للخلافة بعد وحيد الدين كهلا فى الخامسة والخمسين من عمره ، طيب القلب ، رضى الخلق ، ولكنه آسف على ضياع السلطنة ، عامل على استعادة مظاهرها

وأمثال الشيخ شكرى افندى فى تركيا كثيرون . وهم يعملون سراً وعلانية على التمهيد لعودة السلطنة . وعبد المجيد لا شك مرتاح إلى هذه الدعايات والمؤامرات . وثمة علائق متينة بينه وبين رأفت ورءوف وغيرهما من رجال الحرب والسياسة ، علاقات قد يرون هم انها بريئة ، ولكن ذئب انقرة لا يراها كذلك . .

اعلان الجمهورية

« حافظوا على حزبكم وناضلوا عنه . ان العدو خرج من بلادنا . ولكن الحرب لم تضع أوزارها بعد . البلاد ملأى بالخائنين . ادعوا الى سبيل حزبكم ، وانشروا مبادئه فى كل بلد . وفى كل قرية ، وفى كل منزل ، وقفوا فى الجهاد دونى وأطيعونى . فبكم سأبنى تركيا الجديدة ـ تركيا التى ستظل أبداً للاتراك

« حزبكم هذا هو حزب الشعب . والسيادة فيه للشعب . أى مقام غير مقام المجلس الوطنى الكبير لا سلطان له على الشعب . السيادة القومية هى رائدنا فى سن القوانين وتنفيذها بما يكفل لكم الرخاء والحرية . والقرار الصادر بالغاء السلطنة دستور لا يتغير »

الشعب بأسره ينضم الى الحزب . والمعارضون فى المجلس الوطنى يشعرون بدنو الخاتمة ،فيقاومون كمالا بآخر ما فى جعبتهم من وسائل النضال :

فهذا مشروع بقانون يحرم على كل من لم يولد فى أرض تركية ولم يقم فى دائرته الانتخابية خمس سنوات حق الانتخاب . والغاية من هذا القانون حرمان كمال من حق الانتخاب ، لأنه مولود فى سلانيك ـ وهى ليست داخل الحدود الآن ـ ولأنه لم يقم فى أية دائرة انتخابية خمس سنوات . . ولكن هذا المشروع يقبر فى مهده . . .

وهذا رءوف رئيس الوزارة يستغل انقطاع مفاوضات لوزان وعودة عصمت الى انقرة بدون معاهدة ليحمل عليه حملات شعواء الغرض منها القضاء عليه وإضعاف نصيره كمال ، فلا يستقبله فى المحطة بدعوى أن كمالا قابله فى اسكيشهر وعرف منه خلاصة أخبار المفاوضة قبل أن تعرفها الوزارة ، فاذا ما حاسبه كمال على هذا الاهمال فى واجبات اللياقة استقال من الوزارة وراح يرأس حزب المعارضة فى المجلس . ولكن كمالا يقاومه ويقاوم المجلس ويحمل الجميع على احترام عصمت والسماح له بالعودة لاتمام المفاوضات

وهذا وفد من نواب المجلس يتقدم الى كمال طالباً منه الاستقالة من حزب الشعب لأنه لا يليق برئيس البلاد الأعلى أن يكون رئيس حزب سياسى ، فيرد عليه كمال قائلا انه لا يوافقهم على رأيهم ، فليس حزب الشعب حزبا سياسياً يمثل جانباً من الأمة ، بل هو الأمة بأسرها ، وأنه سيرأس المجلس الوطنى كما يرأس الحزب الوحيد فى البلاد

وهذه جبهة قوية تؤلف ضده : رءوف ، كاظم قره بكير ، رأفت ، على فؤاد ، نور الدين ، رحمى ، عدنان ، وكلهم من أعظم القواد وأكبر الساسة

مصطفى كمال يحل المجلس الوطنى ويدعو لانتخابات جديدة . فيرى بعد أسابيع مجلساً وطنياً لا يكاد يفترق عن المجلس السابق فى شىء : فرءوف ما يزال على رأس المعارضة ، ودعاة الرجعية موجودون ، والعداء السياسى يستفحل شره

إذاً لابد من الخطوة الحاسمة : وهى اعلان الجمهورية ، فان تركيز السلطة التنفيذية فى المجلس الوطنى لم يعد محتملا ، ولابد من رئاسة تشرف على أعمال الوزراء عن كثب حتى لا تعرض على المجلس كل شاردة وواردة من شئون الحكم

وهذه الخطوة يسبقها عاملان جوهريان فى نجاحها :

فعصمت رجل « اينونو » و « مودانيا » يصبح الآن رجل « لوزان » فقد عاد الى أنقرة بمعاهدة « هى الوثيقة التى تدل دلالة واضحة على هدم المؤامرة الكبرى التى كانت تدبر ضد تركيا منذ قرون ، والتى كانوا يظنون أنهم ختموا فصولها بمعاهدة سيفر . و « هي الاثر الخالد لانتصار سياسى لا مثيل له فى تاريخ تركيا المجيد » على حد قول مصطفى كمال

وأسطول الاحتلال الذى كان راسياً فى مياه استامبول يرحل عن المياه التركية وسط عاصفة من التهليل والتكبير ، وبعد أن يحيى جنوده العلم التركى تحية التمجيد والاكبار

مصطفى كمال الآن رجل الحرب الظافر ، ورجل السياسة الظافر . وسيضرب ضربته القاضية عما قريب

هو ذا جالس فى منزله المشرف على أنقرة من « تشان كايا » وفى عينيه بريق ذئب غاليبولى وسقاريا . وحوله هيئة الوزارة وعلى رأسها فتحى بك

هو ذا يملى على الوزراء خطته الحاسمة : فهم سيذهبون الى المجلس الوطنى فى الغداة ويقدمون له استقالتهم . وهم سيرفضون الاشتراك فى أية وزارة جديدة تشكل ، وهم سيرون بأعينهم كيف يختلط الأمر على النواب فيتخبطون ويتخبطون حتى يظهر افلاسهم،فيعودون اليه آسفين نادمين ، ويسلمونه زمامهم ويخضعون لكل ما يأمرهم به

وفعلا تستقيل الوزارة . ويتخبط نواب المجلس ثم يتخبطون دون أن يصلوا إلى نتيجة حاسمة . ويتصادف غياب رءوف وبقية المعارضين فى هذا الاسبوع فتزداد المشاكل تعقيداً

وأخيراً ـ وفى عاصفة من النقاش والاحتجاجات والمتناقضات ، يقف كمال الدين سامى باشا ويقول إن ثمة رجلا واحداً ينقذ المجلس مما هو فيه ، وهـذا الرجل هو مصطفى كمال .. فينسى النواب أنفسهم وما يحملون لـكمال من سخائم وعداء ويوافقون على الاقتراح بحماس عجيب . .

ويوفد المجلس رسولا الى كمال فى منزله ليحضر إلى المجلس وينقذه مما هو فيه . . فلا يعبأ كمال بالرسول ولا بالمجلس . . .

فيوفد المجلس رسولا آخر . فلا يعبأ به كمال . . ولـكنه يعود بعـد الحاح منه فيشترط على المجلس قبول ما يمليه عليه دون نقاش أو معارضة . وعلى هذا الاساس يغادر منزله ويتجه صوب أنقرة

وهناك فى احدى قاعات المجلس يجتمع بأقطاب حزب الشعب ويطلعهم على نياته : إعلان الجمهورية ، وتشكيل الوزارة بعد ذلك . ويقف عصمت فيقول : إن ساسة أوربا انتقدوا هيمنة المجلس الوطنى على شئون الوزارة دون وجود رئيس للحكومة ، وإن تشكيل الوزارة غير قانونى إذا لم يسبقه إعلان الجمهورية وانتخاب رئيسها ، فيوافق الحزب على إعلان الجمهورية . .

ثم ينعقد المجلس الوطنى فى الحال . ويدير عصمت ـ نائب الرئيس ـ دفة النقاش بلباقة مدهشة ، فيوافق النواب على اعلان الجمهورية . . فى الحال ! !

وفى الحال أيضا ينتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية باجماع الآراء ! !

وفى الحال أيضا يقف كمال على المنبر ليشكر النواب على ثقتهم فيه ويحضهم على التمسك بالجمهورية : أعظم أثر من آثار حرب الاستقلال ، ثم يعلن تشكيل الوزارة برآسة عصمت ، وينتخب فتحى لرئاسة المجلس

وتطلق المدافع . ويذاع النبأ فى سائر الانحاء فيستقبله الشعب بحماس عجيب : إلا طائفة المعارضين – وهم قليلون

ويتم ذلك كله فيما بين الساعة الثامنة والتاسعة من مساء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣

وفى منتصف الليل يعود الذئب الظافر إلى منزله المشرف على انقرة ، فيخيل اليك أنه مارد جبار يقفز من مرتفعات غاليبولى ، إلى تلال سقاريا ، إلى انقاض السلطنة ، إلى صخرة الجمهورية . . وأن بريق عينيه الذى رأيناه فى غاليبولى وسقاريا ليزداد تألقاً وهولا . .

الخلافة بعد السلطنة

مصطفى كمال يجلس الى رقعة تركيا فيجد كل شيء على ما يرام ، فقد زالت معالم العهد القديم ولم يبق ثمة الا الخلافة

ومصطفى كمال مصمم على الغاء الخلافة ، فقد مهد لهذا الالغاء بالمجلس الوطنى الكبير ، ثم بحكومة المجلس الوطنى الكبير ، ثم بالغاء السلطنة ، ثم باعلان الجمهورية . وهو الآن يتحين الفرصة لتحقيق آخر آماله وينتظر دسائس الرجعيين وقلاقلهم ليضرب الضربة القاضية

وما أسرع ما يشرع الرجعيون فى إثارة القلاقل :

فهذه جرائد استامبول « طنين » و « توحيد أفكار » و « وطن » تستقبل اعلان الجمهورية استقبالا فاتراً ، وتقول إن العمل المجدى لا يتاح بتغيير الأسماء واستعارة كلمة « جمهورية » من قواميس الدساتير

وهذا رءوف بك المقيم فى استامبول يتحدث الى الصحف حديثاً يفهم منه أنه معارض لقيام الجمهورية ، عامل على تأسيس حزب رجعى لمناهضتها

وهذا لطفى فكرى بك يوجه الى الخليفة خطاباً مفتوحاً يقول فيه إنه سمع أن مقام الخلافة يفكر فى الاستقالة ، ويصف أثر هذه الاشاعة فى نفوس الأتراك ، وينذر بالويل والثبور إذا ما فكر أحد فى التعرض لخليفة المسلمين

وهذا حزب رءوف بك يظهر فى الميدان . وها هو رءوف يغادر استامبول الى أنقرة فيودعه أنصاره : رأفت ، وعلى فؤاد ، وكاظم قره بكير ، وعدنان ، وتتحدث الصحف عن برامج المعارضة وعن الوداع الحماسى الذى لقيه من أهل استامبول

وهذا رأفت يهدى الى الخليفة جواداً اسمه « قونية » ومع الجواد خطاب كله ولاء وعبودية للخليفة عبد المجيد

وفى أنقرة يشرع رءوف فى المعارضة . فيقطع عليه كمال خط الرجعة بدعوته الى جلسة خاصة فى حزب الشعب ليدافع فيها عن نفسه . فيحاول رءوف أن يبعد كمالا من الجلسة ليأمن قوة تأثيره ، ولكن كمالا يصمم على الحضور

وفى الجلسة يهاجم عصمت رءوفا ، ويقول : « إن الخليفة إذا قامت فى ذهنه فكرة التدخل فى شئون البلاد ، فان صاحب تلك الفكرة لاشك مقضى عليه . وإن كل من

يفكر فى إحداث انقلاب قد يؤدى الى عودة السلطنة يعد خائناً ، فقد كفى ما لقيته البلاد من وحيد الدين » فيتراجع رءوف مقهوراً ويعلن ولاءه للجمهورية وإيمانه بها

وفى تلك الأثناء تقوم القيامة فى استامبول . ويخلق أعداء الجمهورية حول الخليفة جواً مكهرباً بمقالاتهم الشديدة اللهجة وترحمهم على العهود الغابرة

وفى أواسط اكتوبر سنة ١٩٢٣ تنشر جرائد استامبول خطابين موجهين الى عصمت من أغا خان والأمير على (المرحوم الملك على) وخلاصتها أن مقام الخلافة لابد أن يظل قوياً ، وان السلطنة لابد أن تعود الى الخلافة كما كانت من قبل . .

فيكتفى كمال بهذا القدر من عوامل الرجعية ، ويشرع فى العمل الجدى على الغاء الخلافة ، فيقيم القيامة على المعارضين ، ويخطب ساعده الأيمن عصمت فى المجلس الوطنى مستنكراً تدخل أغا خان والأمير على فى شئون تركيا الخاصة ، ويتهم انجلترا علانية بأنها بدأت تحرك ذنبها وتلعب فى الخفاء

وكلمة « انجلترا » وحدها تكفى لاثارة المجلس . ولذلك لا نعجب اذا رأيناه يقرر إيفاد محكمة استقلال الى استامبول لتأديب الرجعيين وتطهير الجو منهم

لطفى فكرى بك يحكم عليه بالسجن خمس سنوات . رؤساء تحرير الصحف التى نشرت الخطابين يقدمون الى محكمة الاستقلال . وثمة مشايخ يسجنون ، والدساسون يحاكمون ، واليد الحديدية تسيطر على الموقف بحزم وسرعة

ويخرج كمال من كل ذلك برأى عام يؤيده ويتوقع الغاء الخلافة يوما بعد يوم !

* * *

٢٢ يناير سنة ١٩٢٤

مصطفى كمال فى أزمير يشرف على مناورات الجيش . فتصله من عصمت رئيس الوزارة برقية مؤداها أن صحف استامبول عادت الى إثارة مسألة الخلافة من جديد . ووضعت الخليفة فى صدر المعارضة . وان الخليفة يود أن يتصل بالحكومة ويشترك معها فى تحمل مسئوليات الحكم . وأنه يطلب زيادة مخصصاته ليظهر بالمظهر اللائق بمقامه الكبير

فيرد عليه كمال ببرقية طويلة يقول فيها ان الخليفة وحده هو المسئول عن الجو السياسى المكهرب فى استامبول ، فقد عمد الى الظهور بمظاهر السلطنة ، وبالغ فى تفخيم مواكبه أيام الجمعة ، واتصل بسفراء الدول الأجنبية ، واستقبل فى قصره كبار

الموظفين وصغارهم ، مع أنه لم يعد له ـ بعد قيام الجمهورية ـ كيان سياسى ، بل أصبح تذكاراً من تذكارات التاريخ لا أكثر ولا أقل . فلا معنى إذاً لاتصاله بشئون الحكم الا أن يكون ساعياً فى استعادة السلطة . ولا معنى كذلك لمظاهر تخفخته فهو لم يعد سلطانا وانما هو رجل دين وحسب . والمقام الدينى يتنافى مع مظاهر الدنيا . إذاً يجب وضع حد لهذه الحركات الخطيرة . وإفهام الخليفة صراحة ان الحكومة ستقتطع من كادره مالا ترى مبرراً له

وبعد بضعة أيام يجتمع كمال وعصمت فى أزمير ويتفق معه على وجوب الغاء الخلافة بمجرد العودة الى أنقرة

* * *

أول مارس سنة ١٩٢٤

مصطفى كمال يلقى خطبة افتتاح الدورة الخامسة للمجلس الكبير ، فيركز أقواله فى ثلاثة أمور :

أولا ـ رغبة الأمة فى صيانة الجمهورية حالا واستقبالا

ثانياً ـ الرأى العام يطالب بوضع سياسة تعليمية من غير تسويف

ثالثاً ـ لابد من تنزيه الاسلام وإعلاء قدره بابعاده عن عالم السياسة

* * *

٣ مارس

ثلاثة مشروعات لقوانين تعرض على المجلس :

١ ـ مشروع بقانون مقدم من الشيخ صفوت أفندى بالاشتراك مع ٥٠ نائبا ، وهو يقضي بالغاء الخلافة وابعاد الأسرة السلطانية

٢ ـ مشروع بقانون مقدم من خليل حلمى افندى بالاشتراك مع ٥٠ نائبا ، وهو يقضى بالغاء وزارة الشئون الدينية والاوقاف

٣ ـ مشروع بقانون مقدم من واصف بك بالاشتراك مع ٥٠ نائباً ، وهو يقضى بوضع سياسة تعليمية موحدة

فتحى بك رئيس المجلس يطرح المشروعات الثلاثة على المجلس . فيوافق عليها فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين !

وبمقتضى هذه القوانين تصبح الخلافة ملغاة . وتصبح الأحكام الشرعية من شأن

المجلس الوطنى ، وتلغى وزارة الشريعة والأوقاف ، وتضم جميع المعاهد الدينية إلى وزارة المعارف

* * *

ويقوم الشيخ راسخ افندى فيقول إنه مكلف من قبل المسلمين بعرض لقب السلطنة والخلافة على مصطفى كمال . . فيشكر له كمال ولسائر المسلمين حسن ظنهم ، ولكنه يعود فيقول إن السلطنة والخلافة مقامها مقام رئيس الدولة ، فكيف يستطيع أن يكون رئيساً على دولة شرقية لها ملوكها ورؤساء حكوماتها ؟ وهل إذا أصدر اليها أوامره تنفذ هذه الأوامر ؟ وهلا يكون من المضحك أن يتقلد مركزاً وهميا ليس له مدلول ولا موضوع ! ؟

وبذلك تمحى كلمة الخلافة من التاريخ التركى

* * *

الساعة العاشرة من مساء ٣ مارس

الخليفة عبد المجيد نائم فى قصر « ضوله باغجة » . والى استامبول ورجال البوليس يطرقون الباب ويدخلون القصر ويطلبون مقابلته . فيوقظه الخدم من نومه ويدعون الوالى والضباط إلى مكتبه فى القصر . وهناك يقابلهم الخليفة فيقرأون عليه قرار المجلس الوطنى بالغاء الخلافة واقصائه هو واسرته إلى سويسرا . فيهتف الخليفة : « لست خائنا . . أنا وطنى وأحب بلادى . . » وتغمره موجة من التأثر فيجلس إلى مكتبه خائر القوى . فلا يلبث أن يكرر عليه الوالى أوامر أنقرة . فيستعد للرحيل . .

وفى فجر اليوم التالى يغادر قصره هو وأفراد أسرته فى سيارات الحكومة . وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يتحرك القطار من محطة « شاطلجة » حاملا آخر خلفاء آل عثمان الى سويسرا

وهناك فى « تشان قايا » المشرفة على انقرة من عل يجلس الذئب وفى يده رسالة برقية تصف رحيل الخليفة هو وأفراد اسرته ، فيبتسم كما ابتسم وهو يتطلع من شاطىء غاليبولى إلى أساطيل الحلفاء الراحلة عن مياه الدردنيل

فقد زالت الخلافة فزال معها تعصب الغرب

المؤامرة الرهيبة

كلا . . لم تفرغ جعبة الرجعيين بعد

إن مؤامرة رهيبة تدبر فى الخفاء لقلب نظام الجمهورية والعودة إلى المثل الأعلى للحكم فى نظر رءوف وأنصاره : المجلس الوطنى الكبير ، والخلافة

ها هو ذا كاظم قره بكير باشا ، المشرف على ثلث الجيش التركى فى الولايات الشرقية، يقدم استقالته إلى رئاسة عموم أركان الحرب بحجة إهمال اقتراحاته لتنظيم الجيش ، وقبل أن تقبل استقالته ويصل خلفه إلى مركز قيادته فى شرقي الأناضول نراه فى انقرة

وهاهوذا على فؤاد باشا مفتش الجيش الثانى فى قونية يستقيل من الجيش أيضا ويعود إلى انقرة على حين غرة ويتصل برءوف وانصاره ولا يلبى دعوة كمال لتناول العشاء معه

وها هوذا رأفت باشا فى حكم المستقيل

وصحف استامبول تظهر فى تلك الأيام العصيبة حاملة حملات شعواء على الجمهورية، وعلى الدكتاتورية المزعومة فى المجلس الوطنى

والنائب الشيخ أسعد افندى يقدم إلى المجلس عدة أسئلة تتناول نقط الضعف فى الحكومة التركية الجديدة ، وهذه الاسئلة تنقلب استجواباً فى اليوم التالى لتقديم كاظم قره بكير استقالته

ويتم كل ذلك بسرعة عجيبة فى تلك الايام السود التي تبعت تأديب النسطوريين واحتجاج انجلترا عليه ، ورد تركيا القاسى على انجلترا ، هذا الرد الذى أوشك أن يثير حربا بين الدولتين . . وقبيل قيام الثورة الكردية الرهيبة التى كانت كل الدلائل تشير الى قرب وقوعها

وقد خيل الى المتآمرين الأربعة أنهم ضمنوا تأييد الجيش وأوشكوا أن يضمنوا تأييد الرأى العام ، فأجمعوا أمرهم على الهجوم ، وبسرعة ، وبشكل حاسم . .

مصطفى كمال كان ينتظر هذه الحركة من المتآمرين . وإنه لسعيد بها فستتيح له القضاء عليهم قضاء أخيراً

إنه يطلب من عصمت وسائر الوزراء الاستعداد للرد على الخصوم فى المجلس ببيانات

وافية مقنعة . ويطلب من فوزى باشا الاستقالة من النيابة فيستقيل فى الحال . ثم يذهب إلى مكتب التلغراف حيث يطلب من بقية قواد الجيش الاستقالة من نيابة المجلس ، فيستقيل منهم عز الدين باشا وعلى حكمت باشا وشكرى نائلى باشا وفخر الدين باشا ، ويرفض كل من جواد باشا وجعفر طيار باشا الاستقالة ، فيفصلهما من الجيش ويعين بدلهما اثنين آخرين فى الحال . وبذلك يضمن ابتعاد عنصر القواد عن عالم السياسة ، ويضع حداً لتسرب المناورات السياسية إلى الجيش

* * *

٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤

عصمت رئيس الحكومة يفتتح الجلسة بلباقة وكياسة ، إذ يعلن أن الحكومة لم تكن تنتظر استجواب الشيخ أسعد افندى ، ولكن تبين لها أخيراً أن هناك أسئلة لا عداد لها توشك أن توجهها المعارضة الى الحكومة . ومع انها لم تكن على استعداد لكل هذه الأسئلة ، فانه يسرها أن تجيب عنها ارتجالا . .

ولا يكاد يعود عصمت الى مكانه حتى يتكلم من فوق المنبر نحو ثلاثين خطيبا ، ويظهر جلياً أن المؤامرة بالغة أقصى درجات الخطورة ، فالمعارضون يحملون على الحكومة بشدة وعنف ، والحكومة تدافع عن نفسها دفاع المستميت . .

وعندما يجىء دور رءوف يصعد المنبر ويطعن الحكومة طعنات مسممة . ويقول بعد أن يجول فى معارضته ويصول : إن شعار سياسته وسياسة انصاره يقوم على أساس السيادة القومية . . فترتفع من كل مكان أصوات هاتفة : « والجمهورية ! ؟ » . . فلا يعبأ رءوف بالاحتجاج ويقول : « المكان الذى تتجلى فيه السيادة القومية هو المجلس الوطنى الكبير . . » فيعود الصياح : « والجمهورية ! ؟ » . . فلا يعترف رءوف بوجود شىء اسمه جمهورية . . ثم يمطر الحكومة بوابل من الاسئلة المثيرة عن شئون الجيش والتعليم والزراعة والتجارة والصناعة ، ويتهمها بأن ثمة ظلما فادحا يقع على الاهالى ، ويروح فى حملته الرهيبة واغلا دون أن يرحم أو يقدر أن الفترة بين انقضاء حرب الاستقلال وقيام الجمهورية لا تتيح لأية حكومة أن تفعل أكثر مما فعلت حكومة عصمت . وأخيرا يقول بلهجة (دراماتيكية) مؤثرة : « اللهم احفظ بلادنا ووطننا وارحمنا . . . » ثم يغادر المنبر وهو على يقين من أن طعناته أصابت مقتلا

مصطفى كمال جالس فى المجلس دون أن يتحرك أو يتكلم . بيد أن الوزراء والنواب لا يلبثون أن يتقاطروا على المنبر لتفنيد أقوال رءوف والدفاع عن سياسة الحكومة . وانك لتلمس فى أقوالهم عزيمة المستميت فى الدفاع . ومن عجب أن يحسنوا الرد على حملات المعارضة ، وأن يشفعوا أقوالهم بالبيانات والوثائق الرسمية ، مما يدل على أن (الارتجال) كان مناورة سياسية بارعة من عصمت !

وبعد بضع ساعات يعود رءوف الى المنبر ليرد على الحكومة . وهنا تظهر خافية أمره وينكشف الغطاء عن مؤامرته ، إذ يعلن من فوق المنبر أنه ـ وان لم يكن من انصار الخلافة والسلطنة ـ إلا أنه عدو لدود لكل من ينتزع حقوق هذين المقامين

ثم تطول المناقشات وتستغرق بضعة أيام ، وكلما اشتدت استمات الطرفان فى الدفاع عن سياستهما ، حتى تختم بطرح الثقة بالحكومة على المجلس . وعندئذ ينهزم رءوف وانصاره إذ يثق المجلس فى الحكومة بأغلبية ١٤٨ صوتاً ضد ١٩ صوتاً

* * *

ولكن المعركة ما زالت قائمة على أشدها :

فجرائد رءوف تهاجم الحكومة باقلام من نار ، وانصاره يؤلفون حزبا يدعونه « حزب الترقي الجمهورى » . ومبادىء هذا الحزب تقوم على مناهضة الحكومة والعمل على استعادة الخلافة

وثمة دعايات تروج بين سائر الطبقات ، وقوامها الحض على مقاومة الاستبداد والعمل على استرجاع الخليفة ورفع لواء الدين

وثمة مراسلات سرية بين الحزب من جهة ودعاة الثورة فى الولايات الشرقية ثم الأكراد من جهة أخرى . وكاظم قره بكير يصبح فى نظر زعماء الأكراد ـ دون أن يعلم ـ المخلص الوحيد والرجل الذى سينقذ الدين من حكومة انقرة (الكافرة)

وهكذا تتطور حركة رءوف وأنصاره إلى ثورة رهيبة لهم فى اسهمها النصف ، وللمذهب الانجليزى الذى ينثر فى كردستان النصف الآخر

ولست من السذاجة بحيث أقول إن حزب رءوف ساهم فى الثورة الكردية . ولكنى أقرر أن حركته كانت ـ دون قصد منه ـ أخطر تمهيد لهذه الثورة ، وهو عن هذا التمهيد مسئول أمام التاريخ

حبال المشانق

تركيا فى حالة من القلق يرثى لها ، فالبلاد على أبواب حربين : حرب سياسة وحرب ميدان

معالم اليأس تراها فى كل مكان : فى استامبول ، فى أنقرة ، وفى كل بلد أو قرية ، فرءوف وأعضاء حزبه ما يزالون يطعنون الحكومة والجمهورية طعنات نجلاء ، والشيخ سعيد زعيم الاكراد الرهيب يرفع علم النبوة الأخضر ، علم الثورة الدينية ، ووراءه لورانس وفى يده الجنيه الانجليزى الرنان

كل شىء ينذر بالهزيمة والدمار . والأتراك الجمهوريون فى بيوتهم رابضون كأن على رءوسهم الطير ، الا البيت المشرف على أنقرة من عل حيث يجلس الرجل النحيل الضامر الوجه ، رجل غاليبولى الذى انتصر والدنيا بأسرها تقسم : لينهزمن ، رجل سقاريا الذى انتصر والعقل والمنطق وشواهد الحال تدمدم : ليندحرن ، رجل الغاء السلطنة والخلافة الذى انتصر وتراث مئات السنين يسجل : لأعودن . .

هذا الرجل الحديد الجليد الآن يجلس وأمامه خريطة لتركيا عليها الأعلام الصغيرة ، فيشرع فى تثبيت الاعلام حول منطقة الثورة الكردية ، ثم يسوقها الى قلب الثورة من الشمال والغرب والجنوب ، فاذا فرغ من ذلك أشعل سيجارة وراح يدخن ، فقد اندحر الأكراد !

أى والله لقد اندحر الاكراد وكان القضاء عليهم مبرماً رهيباً :

الطائرات تصب عليهم من السماء دمارا ، والمدافع من فوهاتها ترسل حمما والبنادق ترسل ناراً ، والسيف يحز الرءوس ، والخناجر تبقر البطون ، وأربعون ألفاً من الجنود ألهبهم كمال بخطبة نارية يقفزون فى بلاد الكرد من رابية الى قمة ، ثم الى الوهاد ينحدرون ، والناس يقتلون ، والقرى يحرقون ، ومن الانجليز وعناصر الرجعية فى شخص الاكراد ينتقمون

وتشرق شمس ٢٨ يونيه سنة ١٩٢٥ على مشانق تتدلى فيها حبال تتأرجح بجثث خمسة وأربعين زعيما من زعماء الاكراد

وأخيراً . . ها هو زعيمهم الاكبر الشيخ سعيد يتقدم الى مشنقته مبتسما . فيضع الجنود تحت قدميه كيساً مملوءاً بالذهب الانجليزى ليتخذه كرسياً . فيصعد فوقه

بثبات عجيب ويلتفت الى رئيس محكمة الاستقلال ويقول : « لست أبغضك . ولكنا جميعاً سنقدم الحساب يوم الحساب »

ثم يقول لقائد الجيش التركى الذى دحره : « تقدم أيها الجنرال وقل السلام على عدوك الأكبر . . » فيسأله القائد : « ومن هو عدوى وعدو تركيا الأكبر ؟ » فيبتسم الشيخ سعيد ويقول : « انجلترا . . »

وتكون هذه الكلمة آخر كلماته إذ يسحب الجلاد من تحته كيس الذهب الانجليزى فيهوى به الحبل ، فيموت

ويرفع الذئب النحيل الضامر الوجه ، الجائع فوق أنقرة خريطة تركيا من أمامه ، ويقبع فى مربضه حديداً جليداً . الا من بريق عينيه . بريق غاليبولى وسقاريا . . .

***

الآن هو منتصر . والآن الحديد منصهر . فليضربه وليشكل منه ما شاء من النماذج ، وليطهر جو الجمهورية من أدران الرجعية

الآن نراه خطيباً على منبر المجلس الوطنى الكبير . ونرى الاتهام تلو الاتهام يتحدر من بين شفتيه ، ونسمع منه فى الوطنية والقومية كلاما هو كالسحر ، يهتف له النواب طويلا ويصفقون ، ثم يمنحونه على البلاد سلطة دكتاتورية

ورئيس الجمهورية الدكتاتور سريع فى قراراته وحاسم . فهو يقرر :

أن رءوفا عدو لدود للجمهورية منذ مهد للحركة الرجعية بحزبه الجديد

وإن كاظم قره بكير وعلى فؤاد ورأفت وجواد متمردون رجعيون ، وان كل من يمت الى حزب الترقى الجمهورى بصلة رجعى دساس

وان جرائد استامبول المعارضة شوكة فى ظهر الجمهورية

كل هذا يجب أن يزول . . يزول هكذا بسرعة كما زال الأكراد . .

محاكم الاستقلال فى كل مكان تطهر المدن والقرى من الرجعيين ، والصحف تكمم افواهها ، ومصطفى كمال يطوق أعداءه بطوق حديدى لا يفر منه الا رءوف وعدنان وخالدة أديب . والفرصة الذهبية تتاح له إذ تدبر فى أزمير مؤامرة لاغتياله ، ويقبض على نفر من المعارضين ويعثر على قنابل كانت ستلقى عليه من أحد المنازل وهو سائر في الطريق . وتضبط مراسلات تثبت اشتراك زعماء المعارضة فى المؤامرة أو تواطؤهم

مع المتآمرين . فتعقد فى أزمير وأنقرة محكمتان من محاكم الاستقلال يساق اليهما المتآمرون تباعا

وفى منزله المشرف على أنقرة يجلس الذئب ريثما تتم محاكمة أزمير ويحكم على المتآمرين بالاعدام ، فيوقع بامضائه على وثيقة الموت ، ولا يبدو عليه ظل من التأثر إذ يقرر إعدام صديقه القديم « عارف » . . أجل عارف الذى كان أصدق أصدقائه وأخلص أصفيائه ، عارف الذى انقلب متآمراً وانضم الى الرجعيين عقب الغاء السلطنة والخلافة ، عارف الذى أتاح له كمال فرصة الدفاع عن نفسه فى جلسة سرية فانبرى يقول : « أجل لقد حاولت قتلك . . ولو كان معى مسدس الآن لقتلتك ! ! »

وبعد أيام يجيئه الرسول بوثيقة اعدام الفوج الثاني من المتآمرين ، الفوج الذى يتألف من زعماء المعارضة وفى طليعتهم جاويد بك وزير مالية تركيا سابقا ، ومدبر مؤامرات الرجعيين من وراء ستار . . لقد حوكموا فى أنقرة وثبتت إدانتهم ـ والادانة لا يشترط أن تكون الاشتراك فى تدبير المؤامرة ، بل يكفى كونهم أعداء للجمهورية ساعين فى بعث عهد السلطنة والخلافة ـ فيفرج كمال عن قواد الجيش الأربعة ، ويوقع على وثيقة إعدام الآخرين

وهناك خارج أنقرة ، والظلام مرخ سدوله إلا من بعض المصابيح الضئيلة ، تتأرجح جثث زعماء المعارضة تحت المشانق . .

كل واحد من هؤلاء كان صخرة معارضة قائمة بذاتها . وها هم الآن يصمتون صمتاً أبدياً . .

كل واحد منهم ألقى كلمات رهيبة قبل أن يموت . إلا جاويد فقد ألقى آخر نكاته على كرسى الاعدام إذ قال لجلاده : « معذرة إذا كنت لا أجيد الموت شنقاً فانى ـ وايم الله ـ لم أجرب هذه الميتة من قبل ! ! »

تركيا . ولا شىء إلا تركيا

الآن استقلت تركيا ، وألغيت السلطنة والخلافة ، وأعلنت الجمهورية ، وعلق الرجعيون فى حبال المشانق أو شردوا فى أقصى الأرض

الآن زالت نتوء العهد القديم . فهل يزول العهد القديم كله ؟

مصطفى كمال فى أحرج ساعات حياته : فقد ألغى وشنق وشرد ، وبقى أن يزيل من تراث القرون الغابرة وهاداً بأكملها ان كانت نتوؤها قد زالت فهى بعد باقية

وإزالة هذا التراث تكاد تكون فى حكم المستحيل، فجذوره متأصلة فى أعماق النفوس

بيد أن كمالا رجل غاليبولى وسقاريا والجمهورية لا يعرف المستحيل ، لا لأنه كنابليون يتحدى الأرض والسماء ثم تصرعه إرادة الأرض والسماء ، بل لأنه رجل أرقام ، رجل حقائق ، رجل دنيا لايمشى وأنفه فى السماء بل يخطو كل خطوة ونظره مصوب الى الأرض ، وهو الآن اذ يتحدى المستحيل لا يتصور أنه يتحدى مستحيلا بل يرى ويقيس كل شبر من الارض يؤدى الى هذا المستحيل ، ويفكر طويلا فى كيف يجتاز هذا البحر ، ويعبر ذلك المحيط ، ويتسلق تلك القمة الشاهقة ، ويتغلب على ذياك الطريق الشائك ، حتى يصل الى غايته ، فيرى أن ليس ثمة مستحيل ، ويعجب كيف يسمى الناس هذا « البسيط الممهد » « مستحيلا » . .

مصطفى كمال جالس فى منزله الشرف على أنقرة وفى صفحة ذهنه (خريطة) جغرافية سياسية اقتصادية اجتماعية للعالم أجمع . وانه ليخيل الىّ أن فى يده أعلاما صغيرة يثبتها فى هذه الخريطة حيثما أراد الاستقرار ، كما كان يفعل فى غاليبولى وسقاريا وثورة الكرد تماما . .

انى أراه الآن وقد وضع أعلامه الصغيرة حول رقعة من الأرض اسمها الجديد « تركيا » . ثم أراه وقد وجه أعلام هجومه شطر الشرق ، وفتح من الناحية الغربية باباً يتيح للمدنية الغربية أن تصب فى بلاده ، وأرى فى يده مفتاح هذا الباب يفتحه به ويغلقه كما يشاء ويشاء التيار الغربى

وانى لأسمعه يتمتم : « يجب أن ننقل شجرة المدنية الغربية الى بلادنا . ويجب ـ لتعيش هذه الشجرة ـ أن ننقل البيئة التى عاشت فيها من قبل . ثم يجب ـ لتترعرع هذه الشجرة فى مهدها الجديد ـ أن نعودها شيئاً فشيئاً على احتمال جونا وتربتنا التى حملناها معنا من قلب آسيا . وهذا كله معناه فصم علائقنا بالشرق ـ تلك العلائق التى ورثناها عن السلطنة والخلافة ـ فصما أبدياً »

والآن أرجو من قرائي الشرقيين أن يتيحوا لى فرصة الدفاع عن تلك الثورة الاجتماعية الكبرى ، وأن يتجردوا ـ عند قراءتهم هذا الفصل ـ من كل ما سمعوه وتأثروا به من أحوال تركيا الجديدة :

الأتراك جاءوا من أواسط آسيا ، وكانت لهم هناك فى مهدهم الأول مدنية قوامها عالم الخيام حيث لا مستقر الا المكان المعشب ، ولا صناعة الا صناعة الحرب . ولا تجارة إلا فى عالم الأنعام وما اليها من نتاج عالم الخيام ، ولا ملوكية ولا سلطنة بل زعامة بدوية . فلما بلغ سلاطينهم ما بلغوا من مجد وفتوح كان أكثر من نصفها فى الشرق ، واعتنق أولئك السلاطين مدنية الاسلام والشرق الاسلامى ، لم تتغلغل تلك المدنية فى صميم أهل الأناضول، بل ظلت قشرة على مدنيتهم وحسب ، والآن وقد نبذوا سلاطينهم وخلفاءهم ، أفلا يحق لهم أن ينبذوا المدنية التى فرضت عليهم فرضا ، المدنية التى لم يعتنقوها قط بل اعتنقوا منها بعض القشور ؟

وثمة مسألة ثانية : فالاسلام شىء والمدنية الدنيوية شىء آخر . الاسلام دين الله ، والمدنية الدنيوية جلها من صنع البشر . وهذه المدنية الدنيوية لا تمت الى الاسلام فى كل أصولها ، بل انها لها أصولا فارسية ويونانية ورومانية وهندية . ومن الخطل الخلط بين الاسلام وما نسميه « مدنية الاسلام » . ومن الخطل أيضا ربط الاسلام بمدنية الاسلام ، فالدين واحد لا يتغير ولا يتطور ، والمدنية يجب أن تتغير وتتطور . والحمد لله الذى جعل ديننا صالحا ـ بحدوده وأركانه الخمسة ـ لكل عصر من العصور ، ولكل مدنية من المدنيات . فلماذا اذاً نطالب التركى بالمحافظة على مدنيتنا الشرقية ، ولا نطالبه هو بخلق مدنية جديدة مادام راغباً فى ذلك ؟

وثمة مسألة ثالثة : هى « حمل لواء الاسلام » . هذا اللواء كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من حمله . ثم حمله بعده الخلفاء الراشدون . ثم خلفاء بنى أمية . ثم خلفاء بنى العباس والفاطميون . ثم حمل فى المغرب ، وفى الأندلس ، وفى مصر بعد أن حمل فى الجزيرة العربية والشام والعراق . فلما جاء دور الاتراك فى التاريخ الاسلامى حملوه بدورهم وناضلوا عنه طوال ستة قرون ، حتى آذنت قوتهم بالزوال ، ثم اندثرت تماما عقب الحرب العظمى والاحتلال الأجنبى . فلما قامت الثورة الوطنية وطرد الاتراك العدو من بلادهم لم يكن معنى هذا الطرد أنهم استعادوا مجدهم القديم ، بل معناه أن أمة مستعبدة نالت حريتها ، وليس ثمة أكثر من ذلك . فلماذا نطالب هذه الدولة التى بعثت مما يشبه العدم ، وأوشكت أن تقف على قدميها ، بما كنا نطالب به السلطنة العثمانية القوية ؟ وكيف يتاح لها حمل لواء الاسلام وهى لا تكاد تقدر على حمل لوائها هي ؟

وثمة مسألة رابعة : هى « الدفاع عن الاسلام » . هذا الشعار لم يكن يحمله أحد قط عندما كان الاسلام عزيزاً بقوته ، بل كان أجدادنا القدماء يحملون شعاراً آخر مقدساً هو « الهجوم » . . هو « الاسلام أو الجزية » . فلما اضمحل الشعب الاسلامى ووقع ـ وا أسفاه ـ تحت نير الغرب ، ظهر شعار آخر هو « الدفاع عن الأمة » حتى تستقل وتقوى ليتاح لها « الهجوم » بالاسلام . والواقع الذى لا مراء فيه هو أن الدين ليس ضعيفا ، بل الدولة هى الضعيفة ، والأمة هى الضعيفة . فلكي تبعث الدين يجب أن تبعث الدولة والأمة . وهذا هو منطق مصطفى كمال إذ ينادى :

الوطن أولا . . الوطن قبل كل شىء »

وثمة مسألة خامسة : هى أن الشرق الاسلامي سام جداً فى عقائده وأفكاره ، هابط جداً فى حقيقة كيانه السياسى والاقتصادى ـ هذه حقيقة مرة ولكنها لا تقبل جدالا ـ ولذلك نهتف دائما بحياة « الجامعة الاسلامية » و « الجامعة العربية » و « الشرق أصل الحضارة » و « الشرق الذى علم الغرب وسوف يعلمه » . فاذا تأملنا فى حقيقتنا الراهنة رأينا أننا في الأرض ومثلنا العليا فى السماء . ولست أسوق هذا القول لأقلل من قيمة مثلنا العليا ، ولكن لأقول إنه حسن أن ننشد الكمال ونتحدى الغرب بجامعة كبيرة ومدنية هى خير من مدنيته ، ولكن يجب علينا عندما نعول على ذلك أن نسلك الطريق من أوله ، فنصلح من شأن أنفسنا ، ونربى أبناءنا وأحفادنا على تعشق الحرية والجهاد ، ومجاراة الغرب فى سرعة تقدمه ، ثم نكافح لننال استقلالنا ، ثم تعمل كل دولة مستقلة منا على المحافظة على استقلالها والاطمئنان اليه ، فاذا ما بلغنا تلك المرحلة شرعنا نفكر فى المثل العليا ، وكان تفكيرنا فيها فى إبانه . ومما يؤسف له حقا أن نقول إن كمالا كان ـ وحده ـ أول من رسم لدولته تلك السياسة المنظمة التى تقضى بسلوك طريق المثل الأعلى من أوله ـ مهما يكن فى هذا السلوك من هبوط مؤقت بالمثل الأعلى إلى مستوى الأرض

وثمة مسألة سادسة : لماذا يظل الشرق روحانياً فى دنياه ، مسالماً ينشد السلام ويتغنى بأنشودة السلام ، محقا يطلب الحق ولا شىء إلا الحق وكلمة الحق ، وهو فى عالم مادى ، محارب ، مستعمر ، لا يعرف الحق إلا مع القوة ، ولا يعترف بكلمة الحق إلا إذا رفعتها فوهة المدفع ؟ ولماذا أسمع مفكراً من أكبر مفكرى الشرق يقول فى حديثه عن حرب الاستقلال التركية إنها أدت إلى خير النتائج ، ولكن ثمة شيئاً يشوه

من جمالها ، وهو سفك الدماء والتضحية بمئات الألوف من الأتراك ؟ !

هذه العقلية لم تكن قط موجودة فى الشرق . ووجودها الآن جريمة كبيرة وعار يلحق بنا وبأبنائنا وأحفادنا . ومما يهون علينا أمرها أن الشرق بدأ يستيقظ من أثر هذا المخدر ، وبدأ يدرك أن الروح لا تقوى على المادة إلا إذا قاتلتها بمثل حديدها ، وأن السلام لا يعيش حيث تغطى أسنة الرماح آفاق العالم ، وأن الحق لا يسود إلا مع القوة

وثمة مسألة سابعة : هى أن الأتراك ظلوا طوال عهد السلطنة والخلافة لا يعرفون لهم وطناً ، فدينهم ووطنهم هو الاسلام . وحيثما كان التركي : فى مصر ، أو سوريا ، أو العراق ، أو الحجاز ، أو اليمن . . كان هنـاك وطنه . وحدود تركيا لم يكن لها وجود . والنفير إلى الحرب لم يكن : « قم ودافع عن وطنك » بل « قم لتدافع عن الاسلام » . وقد كان هذا حسناً عندما كانت القوة والدولة للسلطنة العثمانية . أما وقد خرج الشرق من الحرب العظمى بدول منفصل بعضها عن بعض ، ولـكل منها استقلال تنشده ، وحدود تطالب بها ، فمن العبث أن يظل التركي متخذاً « عالم الاسلام » وطناً له . ولهذا فصل مصطفى كمال تركيا عن « عالم الاسلام » كما فصلنا نحن أقطارنا عنه وجعلنا لـكل منها كيانا مستقلا

* * *

تلك روح الجمهورية التركية : جمهورية مصطفى كمال حاولتها تحليلا عاجلا وأرجعت كل مظهر من مظاهرها الى سبب لا ينتقل بالقراء الى عالم جديد ، ودولة جديدة

إنه يفهم الاتراك

ماذا يرى مصطفى كمال بعد أن ألغى السلطنة والخلافة ، وأعلن الجمهورية ، وعاق المعارضين فى حبال المشانق وشردهم فى أقصى الأرض ، وفصم علائقه بالشرق الاسلامى وعول على استنبات المدنية الغربية فى بلاده ؟

إنه يرى على الرءوس الطربوش والقلبق والعمامة البيضاء أوالخضراء أو الحمراء والبدة الطويلة التى يلبسها الدراويش ، والطاقية ، والطرطور الذى يلبسه الاكراد . وكل واحد من هذه الأشياء يشير الى طائفة معينة ويثير فى النفوس التعصب والبغضاء

ويرى على الابدان الملابس الافرنجية ، والجبة والقفطان ، والشروال ، والجلباب ، والعباءة ، وكل هـذه الملابس ألوانها زاهية صارخة . وهى أيضاً تقسم الأتراك الى طبقات وشيع وتثير تعصباً وعداوة

ويرى فى الرءوس ثقافة غربية وأخرى شرقية ، وثالثة تتوسط بين هذا وذاك ، ورابعة هى الجهل بعينه !

ويرى حيثما استقر التعصب فى النفوس مذاهب ليست مما أمر به الله والرسول ، وطرقا دينية حديثة على الاسلام : فهذا مولوى ، وذاك بكتاشى ، وأولئك نقشبنديون .. وهؤلاء لا أدرى ماذا مما أبدعته القرون الوسطى ومهد له الجهل والتأخر والجمود

ويرى لرجال الدين « دولة فى داخل الدولة » ، ويرى فيهم عـدداً عديداً ممن لا يمتون الى الدين بصلة الا فى لبس العمامة البيضاء أو الخضراء أو الحمراء

ويرى ـ كلما أقدم على ضرب من ضروب الاصلاح ـ حرباً شعواء يعلنها عليه رجال الدين وتعلنها تلك النماذج العديدة من أغطية الرءوس والابدان ولباس العقول ومستقر التعصب ، مع أن الاسلام دين الاصلاح ، دين التقدم ، دين سائر المدنيات

بل انه ليرى فى كل نموذج من تلك النماذج « أمة » مستقلة ويرى داخل الحدود التركية « أمما » متناحرة : فأهل استامبول والساحل الأوربى أمة ، وأهل الأناضول الى أنقرة أمة ، وأهل ساحل البحر الاسود أمة ، وأهل بلاد الـكرد أمة ، وأهل آطنه وما حولها أمة ، وأهل شرقي الأناضول أمة . . .

ومصطفى كمال يريد أن يسير فتقف صخور تلك النماذج فى سبيله صماء شماء

ويريد أن يصلح فتتقلب عليه وتعرقل سير اصلاحه

ويريد أن يستقر الشعب فتأبى هى إلا أن تثور فى كل مناسبة ولأتفه الأسباب !

* * *

« كلا . . هذه ليست تركيا التى أعرفها . وانما هي تركيا فى ثياب السلطنة والخلافة والمدنية الشرقية الاسلامية . . »

تلك الـكلمة يقولها مصطفى كمال وهو جالس فى منزله المشرف على انقرة بعد أن جمع وطرح وضرب وثبت الأعلام الصغيرة هنا وهناك وهضم الموضوع كله هضما عسكريا منطقيا

« تركيا التى أعرفها لا تتعصب لشىء . الاتراك الذين دفعتهم الى خط النار فى

غاليبولى وسقاريا هم الاتراك الذين أقاموا ـ وما يزالون مقيمين ـ فى أواسط آسيا . إنهم كانوا هناك فى مراعيهم ووسط خيولهم وخيامهم يطيعون زعيم قبيلتهم طاعة عمياء . وإنهم الآن لم تتغير منهم الا القشور . وهذه القشور سأزيلها لأصبح فى نظرهم زعيم القبيلة الاكبر »

« وعندما أشرع فى ازالة هذه القشور والعود بأبناء وطنى الى طبيعتهم الأولى ، سيظهر دعاة التعصب والثورة حاملين ألوية الرجعية . . فأضرب عليهم بيد من حديد وأعوهم من عالم الوجود ، ثم أعود الى قومى لاصلح من شأنهم بالمنطق آنا وبالحديد والنار أحياناً ، حتى أمهد نتوءه وأوحد أزياءه وعقائده وثقافته وعقوله وأقضى على تلك « الدولة فى داخل الدولة » ، ثم أقذف به فى تيار الحياة الصاخب ليكافح وحده ويثبت للطبيعة أنه بالبقاء جدير »

حزب الشعب الجمهوري

وضع (زعيم القبيلة الأكبر) أساسه عندما عقد مؤتمر أرضروم وسيواس . وأكمل نصف بنيانه بالمجلس الوطنى الكبير . ثم أتمه عندما طاف بالمدن والقرى وأسسه وفق مبادىء جديدة تقوم على تعاليم الجمهورية

وهذا الحزب هو تجسيم مادى لفلسفة مصطفى كمال ودستوره فى الحياة . فقد وضع أول الأمر نقطة واحدة هى شخصه . ثم شرع يرسم حول هـذه النقطة دائرة من المنطق والحديد والنار ، فنقل الحكم من يد السلطنة الى يد مؤتمر ارضروم وسيواس ، ثم الى المجلس الوطنى الكبير . ولما استقر الحكم فى هذا المجلس قطع الحبل الذى يربطه بالباب العالى فى استامبول بالغاء السلطنة ، ثم الخلافة . ولما خلصت له أمور الدولة أعلن الجمهورية . ولما قاومته المعارضة نبذ المجلس الوطنى وأسس حزب الشعب الجمهورى الذى شمل جميع أفراد الأمة ، وبذلك جعـل حزبه هو الناخب ، وجعل المجلس الوطنى هو المنتخب . ولما كانت هيئة الوزارة تنتخب من المجلس الوطنى الكبير وكان المجلس ينتخب من حزب الشعب الجمهورى ، فقد أصبح هذا الحزب مشرفا على هيئة الوزارة وعلى شئون الدولة

وهنا يتم مصطفى كمال رسم دائرته الجبارة فى أربع سنوات اذ يصل الى حيث

ابتدأ فى نقطة مؤتمر أرضروم سنة ١٩١٩ . فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديداً جليداً ، ثم يديرها من جديد ـ ولكن كما تدار الرحى ـ فيطحن نتوء العهد القديم ورءوس دعاة التأخر ويظل يطحن ويطحن حتى تعود الدائرة الى حيث ابتدأت فى أربع سنوات أخر . فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركزها كما كان وحيثما كان حديداً جليداً ، ثم يديرها من جديد ـ ولكن لتبنى هذه المرة ـ فيبنى ثم يبنى ، ويشيد ثم يشيد ، ويصلح ثم يصلح ، ويعلم ثم يعلم ، حتى تعود الدائرة الى حيث ابتدأت فى أربع سنوات أخر ، فماذا يفعل بعد ذلك ؟

إنه يجلس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديداً جليداً . ولكنه لا يديرها فى هذه المرة بل يديرها عوضا عنه جهاز جبار صاغته يد كمال الداهية من تجارب اكتسبها طوال أيام كفاحه الرهيب ، وهذا الجهاز يسمى « الجمهورية التركية » ، وله من مصادر القوى ستة مصادر : هي الوطنية ، والشعبية ، والجمهورية ، والقومية ، والثورية ، والعلمانية

وتتم الدورة الرابعة فى سنة ١٩٣٥ عقب الاحتفال بمرور عشر سنوات على الجمهورية التركية

وستتم الدورة الخامسة فى عام ١٩٣٩ . والسادسة فى عام ١٩٤٣ ، والسابعة فى عام ١٩٤٧ . والثامنة فى عام ١٩٥١ . والتاسعة فى عام ١٩٥٥ . والعاشرة فى عام ١٩٥٩ . وسيقضى كمال نحبه قبل هذا العام أو بعده . سيقضى نحبه وهو فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديدا جليدا . وسوف لا يقف الدوران بعد موته فالجهاز الجبار هو روح كمال الذى لا يموت

الزي الموحد

وحزب الشعب الآن فى دورته الثانية . والدائرة التى يجلس كمال فى مركزها تدور كما تدور الرحى ـ فتطحن النتوء والرءوس

وثمة قشرة من مخلفات العهد المنقرض على وشك الدخول فى دورة الرحى :

فالطربوش والعمامة والقلبق و « اللبدة » الطويلة والطاقية والطرطور ، والجبة والقفطان والشروال والجلباب والعباءة ، كل هذه النتوء توشك أن تزول

فأما الطربوش فلباس للرأس أخذه السلطان محمود الثانى عن اليونان فثار جنوده وشعبه عندما أرغمهم على اتخاذه لباساً لرءوسهم . فكيف يثور الأتراك لخلعه الآن وقد ثاروا من قبل عند إرغامهم على لبسه وزعموا أنه مظهر من مظاهر النصرانية ؟

وأما العمامة فأثر من آثار حاخامات اليهود . وقد أصبحت بعد ذلك شعاراً للعلماء والأئمة المسلمين . فلتبق كذلك . أما تلك العمائم التى يلبسها كل من هب ودب من الأدعياء والنصابين والمشعوذين باسم الدين فما شأنها ؟ تلك العمائم يجب أن تدخل تحت الرحى لتطحن . وأما عمائم العلماء والأئمة والمفتيين فتبق شعاراً مقدساً تراه فتحكم بأن حامله شيخ جليل وإمام كبير . وهذا ما يرجوه رجال الدين أنفسهم

وأما القلبق فيذكرنا بعهود السلاطين وعهد الاتحاديين . فليطحن . .

وأما « اللبدة » الطويلة والطاقية والطرطور فأشكال مضحكة تدعو الى السخرية والزراية . فلتطحن . . .

وأما الجبة والقفطان فحكر للعلماء والأئمة والمفتين . فاذا لبسها من لم يكن عالماً أو إماما أو مفتياً طحنته الرحى

وأما الشروال والجلباب والعباءة وما اليها فكاللبدة الطويلة والطاقية والطرطور أشكال مضحكة مزرية ، فلتطحن . .

مصطفى كمال يأمر بتوحيد الزى ، فالقبعة للرأس ، واللباس الافرنجى للبدن

ولكن لماذا يختار القبعة ولا يبتدع شكلا جديداً من أشكال أغطية الرءوس ؟

سؤال يجيب عنه هو قائلا : « ولماذا أبتدع الشكل الجديد ؟ أنا أحارب فكرة التعصب بالقبعة ، ولن يفل الحديد إلا الحديد »

ثم يسأل السائلين بدوره : « ولماذا لبستم أنتم اللباس الافرنجى منذ أكثر من نصف قرن واللباس الافرنجى من مظاهر النصرانية ؟ ولماذا تعترضون على القبعة وانتم أوربيون من الرقبة إلى أخمص القدم ؟ »

* * *

أول سبتمبر سنة ١٩٢٥

مصطفى كمال ألبس الجنود ورجال البوليس والبحرية القبعة فلبسوها طائعين

زعيم القبيلة الاكبر . وهاهوذا الآن يزور قسطمونى زيارة رسمية وقد لبس القبعة..

الموظفون يبادرون إلى لبس القبعة بدورهم كما لبسها زعيم القبيلة الأكبر .

والشعب يقف أمام هذا المنظر العجيب مدهوشاً

لابس القبعة مصطفى كمال يقف أمام الجماهير خطيباً ، ويقول :

— اللباس الدولى الذى تلبسه الشعوب المتمدنة يناسبنا تماما . سنلبس الجورب والحذاء والسروال والقميص والصدرية والحمالة ورباط الرقبة . وسنلبس فوق رءوسنا ما تسمونه «القبعة» . وسنلبس الردنجوت والجاكته والسموكنج والفراك . وإذا كان فيكم من يعارض فى ذلك قلت له فى وجهه أنت غبى وجاهل . .

« إننا إذا لبسنا ملابس تختلف عن ملابس الغرب ظللنا متأخرين ، لأننا سنظل فى نجوة عنه . انظروا الى العالم التركى والاسلامى : ألا ترون أن العلة فيما نقاسيه الآن هى أننا لم نشكل عقولنا وأرواحنا بما يناسب تطور العالم ؟ بلى . . إن هذا سبب تأخرنا وما حاق بنا من نكبات . ولولا أننا غيرنا عقليتنا فى المدة الأخيرة ما استطعنا أن نظفر باستقلالنا . .

« يجب ألا نقف حيث نحن الآن ، بل نسير ونتطور يوما عن يوم . .

« يجب على الأمة أن تدرك أن المدنية تملك من القوة ما تستطيع به أن تحرق وتدمر كل ما يقف فى سبيلها دون أن يجاريها ! »

وبعد قسطمونى يذهب إلى اينيولو ، ومنها إلى بروسه ثم إلى اسكيشهر ، ثم إلى قونية ، وفى كل مرحلة يمثل نفس الدور الذى رأيناه فى قسطمونى

وفى إحدى هذه المراحل نراه وسط جمهور عظيم من الشعب فيه لابس القبعة ولابس العمامة ولابس الطربوش ولابس الطرطور الطويل . نراه كالساحر المريد يطوق الجميع بمغناطيسية نظراته النارية . ونسمعه يتحدث فلا نسمع من الجماهير إلا الشهيق والزفير ووجيب القلوب . ثم نراه يشير باصبعه إلى أحدهم ويقول : « صاحبنا هذا الواقف هناك . . ألا ترون الطربوش فوق رأسه ومن تحته شروال عجيب وصدرية صارخة الألوان؟ما هذا الخليط الذى إذا رآه أوربى سخر منا واتخذ هدفا لنكاته ؟ ! »

فيضحك الناس . ويخجل صاحبنا من نفسه ومن زيه ، ونراه بعد بضع ساعات لابسا القبعة واللباس الافرنجى . .

ويعود لابس القبعة إلى انقرة فيجد القبعة على رءوس معظم مستقبليه فى المحطة ..

وبعد أيام يصدر مجلس الوزراء قراراً بفرض لبس القبعة على سائر الموظفين

ثم تصدر بلدية استامبول مثل هذا القرار لموظفيها

وتمر أيام وأسابيع نرى فيها القبعة على سائر الرءوس بعد رءوس الموظفين : فالطلبة ، والمحامون ، والأطباء والمهندسون والمدرسون ، والحمالون ، والفلاحون ، كل أولئك رحبوا بالقبعة ونبذوا الطربوش وسائر أغطية الرءوس

وعندما يحار الأتراك فى كيفية الصلاة بالقبعة يصدر مفتى استامبول فتوى تقول بأن خلع القبعة علامة من علامات الاحترام ، فلم لا تخلع أمام المولى سبحانه وتعالى وهو أولى بالاحترام والاجلال ؟ ثم يصدر عميد كلية العلوم الشرعية فى أنقرة منشوراً عاما يخير فيه المصلين بين خلع القبعة ولبسها فى أثناء الصلاة

وأما العمامة فتقتصر على المفتين والعلماء وائمة المساجد المعترف بهم من الحكومة . فأما المؤذنون وحراس المساجد وخدمها وخدام المقابر والاضرحة وغاسلو الموتى والدراويش فقد لبسوا القبعة

يبدو لنا من ذلك أن القبعة لم تفرض إلا على موظفى الحكومة . أما سائر أفراد الشعب فقد لبسوها راغبين فيها لا مرغمين بعد أن لبسها « زعيم القبيلة الأكبر »

وأخيراً يقدم رفيق بك نائب قونية فى المجلس الوطنى مشروعا بقانون يقضى بفرض القبعة على الترك ـ بعد أن لبسها الاتراك جميعاً ، ومن لم يلبسها منهم سار حاسر الرأس ـ فيقف الجنرال نور الدين باشا أحد أبطال حرب الاستقلال فى ٢٦ نوفمبر ويعارض فى المشروع بشدة ، ويقدم للمجلس تقريراً مقتضاه أن قانون القبعة يخالف نص المادة ١٠٣ من الدستور التى تقول بوجوب احترام الحرية الشخصية . . .

وبعد مناقشات طويلة يوافق المجلس على القانون بأغلبية الآراء ، إلا رأى نور الدين باشا ورأى نائب يدعى احسان بك

وتمر أيام وأسابيع تصل فيها انباء معارضة نور الدين باشا لقانون القبعة إلى ولايات الأناضول الشرقية : سيواس وارضروم ومرعش وريزه . فتخرج حشرات الرجعية من أوكارها ، ويحمل بعض المتهوسين من الدراويش العلم الأخضر ـ علم النبوة فى زعمهم ، ألا ساء ما يزعمون ! ـ وينادون بسقوط حكومة انقرة الكافرة !

وتنقضى بضعة أسابيع تسفك فيها الدماء وينادى الدراويش بالثورة . .

وفى انقرة ، فى المنزل المشرف على العاصمة من عل :
مصطفى كمال جالس فى مركز الدائرة كما كان وحيثما كان حديدا جليدا
والرحى تدور . فتطحن النتوء والرءوس . . !

الويل للدراويش !

كتلة متحركة من القذارة والجراثيم والأوبئة تسير فى أسمال بالية تتألف من مئات الرقع وتلبس عمامة خضراء : هاك أحد الدراويش . .

وكتلة ثانية من القذارة والجراثيم والأوبئة تسير نصف عارية ، وتصدر عنها أصوات حيوانية لا معنى لها تنطلق خلال المخاط واللعاب السيال : وهذا درويش متصل بالملكوت الأعلى ! . . .

وكتلة ثالثة من الشحم واللحم والشعر الغزير الفاحم ، تراها فترى الغباء مجسماً والشهوة جامحة متمردة ، وتراها الجدران الأربعة فى عالم خسيس من الاثم والفجور والحيوانية الوضيعة : وهذا درويش من طائفة المولويين أو البكتاشيين . .

وكتلة رابعة من الجهل والغباء والتعصب تجلس على مثل عرش الملوك وتبيع وتشترى فى سوق الذمم والأعراض وتتصرف فى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ولا يحلو لها الصيد الا فى الماء العكر ولا الحركة إلا فى الظلام : تتسلط على عقول البسطاء السذج بورق وحبر وطلاسم لا معنى لها تسمى « أحجبة » ، وسيوف خشبية خضراء تسمى « سيوف الاسلام » ، وأعلام خضراء كتب فوقها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تسمى « أعلام النبى » ، وهذه الأعلام لا ترفع إلا عندما يقوم الخائنون بحركة رجعية ، أو ينثر جواسيس الأعداء الذهب ذات اليمين وذات الشمال : وهذا هو شيخ الدراويش . .

وإنك لتسير فى أجمل بقاع تركيا ، فترى قصراً شامخاً تحيط به حدائق غناء وكروم تمتد الى مدى البصر ، فتصعد اليه فتراه محاطاً بالأسوار محكم الرتاج كأنه قلعة من قلاع القرون الوسطى ، فاذا أتيح لك الدخول اليه رأيت عالما بغيضا من الأباحية تفصله الأسوار الضخمة عن عالم الحدود والشرائع والأخلاق :

فهذا الكرم تعصر منه الخمر المعتقة التى يشربها ساداتنا الدراويش ـ الخمر الالهية

التى لا تتاح للانسانية أسباب الملكوت الأعلى إلا بها . .

وتلك الكؤوس الفضية والذهبية فى تمالاتها سر الوجود . .

وهذه النار التى يقفون أمامها صامتين خاشعين ما هى إن لم تكن من آثار الوثنية الفارسية ؟ !

وأولئك الغلمان المرد الحسان ما شأنهم فى تكية الدراويش ؟

والنساء ما شأنهن فى هذا العالم الاباحى ووسط تلك الكتل الشحمية اللحمية الشهوانية ؟

وهل يصلى هؤلاء الدراويش ؟

وهل يصومون ؟

وهل يزكون ؟

وهل يحجون ؟

وذكر الله ما علاقته بالرقص على هتفات الناى ونقرات الدف والقانون ؟

وهذا الدرويش الذى يدور على رجله « كالكوك » : ما خطبه ؟

والله سبحانه وتعالى ، هل يرضى عن ذكر أولئك الراقصين العابثين ؟

وتلك الألوف المؤلفة من الدراويش : ما فائدتها ؟ وما رسالتها فى الحياة ؟ وما علاقتها بالاسلام ؟ وكيف ظلت قائمة طوال تلك القرون الستة ؟ وكيف احتكرت أجمل بقاع تركيا وأجودها ثماراً وأخصبها أرضاً ؟

وانك لترى للدراويش أسماء لا عداد لها : فهذا رفاعى وذاك قدرى ، والثالث نقشبندى ، والرابع خلوتي ، والخامس سعدى ، والسادس مولوى ، والسابع بكتاشى . .

ولكل من هؤلاء تكايا ، وأوقاف ، وأموال مدخرة ، وحقول واسعة ، ومشايخ ، وأتباع ، وأنصار ، وخدم ، ومحاسيب . .

وكل واحد من هؤلاء لا يؤدى فرائض الدين إلا لماما ، ويرتكب المحرمات دواما وله كل الحقوق ، وليس عليه شيء من الواجبات ، وكل عمله فى الحياة ألا يعمل ، ورسالته هى نشر الخرافات فى دنيا القرن العشرين ، ومد اليد الشريفة للبركة والتقبيل

هؤلاء الدراويش كانوا خير عون لوحيد الدين وخفاشه الأسود عندما أصدرا منشورهما اللعين الذى أباحا فيه دم كمال وأتباعه ، فقد راحوا يذيعونه فى طول البلاد

وعرضها وكأنهم ينشرون دين الله ـ قاتلهم الله !

ومن أتباع هؤلاء الدراويش تألف « الجيش الأخضر » الذى رأيناه فى أول حرب الاستقلال

وفى هذه التكايا ـ أوكار الرجعية وأعشاش المؤامرات والخيانة ـ حيكت خيوط من الدسائس والمؤامرات ذاق الوطنيون منها الأمرين

وبضعة رجال من شيوخ أولئك الدراويش نفحهم الشيخ سعيد ببعض ما جاد به عليه الانجليز فخرجوا من تكاياهم يحملون « علم النبوة الأخضر » وينادون بسقوط الكفرة الملاحدة

وهؤلاء هم الذين قاموا يناهضون قانون القبعة والزى الافرنجى . . .

* * *

الآن يجلس الرجل الحديد الجليد فى مركز الدائرة التى تدور كما تدور الرحى وبعد أيام تطحن التكايا وما حوته من كسل وغباء وشحم ولحم وشهوة وخرافة ودس وخيانة !

ثم تسمع الرجل الحديد الجليد يقول : « اذهبى فى عداد الذاهبين ، فالجمهورية التركية لا تقوم على الخرافات والدجل والشعوذة ، ولكن على العلوم والفنون ، على المدنية الحديثة »

الدراويش يحاولون إثارة الرأى العام على الحكومة ، فلا يثور الرأى العام ، فقد عرف « زعيم القبيلة الأكبر » وآمن برسالته

فاطمة ترقص !

رآها « زعيم القبيلة الأكبر » فى مراعى آسيا تتهم من النجاد الى الوهاد وتنجد من الوهاد إلى النجاد ، وتركب الخيل وتقطع ثديها إذا ما بلغت سن اليأس وانقطع عنها المحيض لتشعر وهى فى ميادين القتال بأنها « رجل » . رآها فى البيت سيدة مطاعة تأمر وتنهى وتتحكم فى شئون الرجل والطفل . ورأى لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما للرجل وما عليه

ثم رآها في حرب الاستقلال الى جنب الرجل تحمل له المؤونة والذخيرة ، وتضمد

جراحه وتقوم بأعمال الحرث والغرس والحصاد فى غيابه عن القرية . بل انه رآها محاربة ، تحمل البندقية والسيف والحربة والخنجر ، وتفتك باليونانيين برءوس الزجاج المحطم ، وتبلغ فى الجيش رتبة البكباشية

لم يدعها أحد الى التطوع قط ، فقد ازالت معالم الحرب غشاوة كانت ترين على حياتها ، فانطلقت « فاطمة » بنت مراعى آسيا وربيبة الخيول والهجرة والكفاح تستعيد ماضيها العتيد وتلتف حول راية الزعيم كمال كما التفت جداتها حول راية الزعيم ارطغرول

فكيف يزعمون أن فاطمة كانت فى عالم الحريم اسيرة ذليلة مكسورة الجناح ؟ إنها لم تدخل عالم الحريم قط ، وإنما دخلته الجوارى الشركسيات واليونانيات وكل من اشتراهن الخليفة وحاشيته بالمال

وكيف يقولون إنها كانت محجبة ثم أمعنت فى السفور بمجرد اعلان الجمهورية ؟ إنها لم تعرف الحجاب قط منذ انحدرت من مرتفعات آسيا الى الأناضول

ولماذا يعجبون اذا منحت الحرية المطلقة ونالت حق الانتخاب قبل أن تناله معظم نساء أوربا ، وساهمت فى الوظائف والاعمال التى كانت حكرا للرجل ؟ إنها كانت تتمتع بكل هذه الحقوق فى نجاد آسيا ووهادها . وكل ما جد فى الأمر هو أن زعيم القبيلة كمال تذكر هذه الحقوق فتشبه بالزعيم ارطغرول ولم يقف حجر عثرة فى سبيل فاطمة

كل ما يخيل للناس أنه جديد فى حياة فاطمة قديم موغل فى القدم . ولعل الشىء الوحيد الذى يتخذ طابع الجدة هو أن الدائرة تدور كما تدور الرحى فتطحن من قشور العهد البائد ما يحول دون ظهور اللباب التركى الأصيل

الرحى تطحن الحجاب الذى يستر وجوه أقلية الفواطم ، وتطحن من تقاليد الحجاب مالم تألفه فاطمة بنت مراعى آسيا ، ومن عالم الحريم ما يندى له جبين الانسانية خجلا ، ومن جمود العهد البائد ما يعطل نصف الجسم التركى ويشل حركته ، حتى إذا ما تمت عملية الطحن برزت فاطمة الى ميدان العمل ، واحتلت فى حياة الترك مكانها القديم ولبست القبعة اسوة بالزعيم

وكمال زعيم القبيلة الأكبر رجل عول على هدم صروح العهد البائد والقضاء على مخلفاته فى الحياة التركية الاجتماعية فهدم وقضى على سائر المخلفات . ثم رأى ان يمعن

فى الثورة الاجتماعية الكبرى ويقفز بها قفزات جنونية تدفعها الى الامام ، حتى اذا ما هدأت ثائرة النفوس عادت القهقرى قليلا واستقرت فى الوسط ، وظلت كذلك أبد الآبدين

لذلك نراه يدفع بفاطمة الى عالم الرقص الجنونى ـ فترقص فاطمة ما شاءت وشاء لها الزعيم أن ترقص ، وتخاصر الرجل على نغمات « التانجو » و « الفوكس تروت » كما خاصرته على نقرات الطبل وهتفات الناى والمزمار من قبل ، وانك لترى عدداً من الفواطم يترددن فى مخاصرة الضباط الترك فى حفلة راقصة أقامها الزعيم فى منزله المشرف على انقرة ، فيدنو منهن الزعيم ويخاطب الضباط على مسمع منهن بصوت يتهدج من فرط الغضب : « هذا أمر عسكرى وليس مجرد لهو أو دعابة . تفرقوا فى صالة الرقص وخاصروا من شئتم من النساء . . هيا . . الى الأمام . . مارش ! »

وسرعان ما تلبى بقية الفواطم أمر الزعيم . .

* * *

وبعد بضع سنوات :

الثورة الاجتماعية التركية قفزت إلى الأمام قفزات جنونية . ثم تراجعت إلى الوراء قليلا فاستقرت حيث شاء الزعيم ، وحيث تتخذ فاطمة فى تركيا الجديدة مكان جدتها القديم فى الخيام المتطايرة فوق مراعى آسيا

* * *

وبعد احتلال فاطمة مكانها القديم :

« القتال أولا . وبعد أن تضع الحرب أوزارها مارسوا فى عالم السلم حياة السلم : فالبسوا جيداً ، وكلوا جيداً ، وثقفوا عقولكم ثقافة حرة ، ومارسوا من الاعمال أدومها واذهبوا في أوقات الفراغ الى المتاحف ودور السينما والتمثيل والمراقص ، واطربوا ما شاء لكم الطرب »

تلك رسالة الزعيم كمال ورسالة الجمهورية

القتال أولا . ثم العمل الحر ، والثقافة الحرة ، واللهو البرىء الحر

وكل شىء الآن على نقيض ما كان فى العهد البائد :

ففى عهد السلطنة والخلافة لم يكن ثمة من الفنون أو النشاط الفنى إلا أقله . وهذا القليل كان حكراً لخليفة المسلمين وقصور خليفة المسلمين وباشوات خليفة المسلمين

أما الآن فهذه القصور تصبح متاحف عامة أدخلها أنا وتدخلها أنت ويدخلها فلاح الأناضول ليغذى عقله وروحه بما أبدع الفنان من روائع الآيات الفنية

والرحى تطحن من قيود العهد البائد ما كان يشل الحركة الفنية . فاذا مافرغت من طحنها رأينا عالماً جديدا فيه فن حر وثقافة فنية حرة : فالتماثيل تقام فى استامبول وانقرة وغيرهما من كبريات العواصم . واللوحات الفنية تراها فى كل مكان . والسينما يمارسها الاتراك ويتذوقونها . والتمثيل يبعث من جديد . وفاطمة تظهر على الشاشة البيضاء وعلى خشبة المسرح . والاناشيد الوطنية تلحن . وقيود الفن الشرقي يتخطاها التركى الذى لا يعرف التعصب . وثمة أشعة من الفن الغربى تشرق على الفن التركى فتتألف من الفنين ذات فنية مستقلة رائعة فى جمالها ، رائعة فيما توقظه فيك من الروح الفتى الوثاب

الذئب أمام السبورة

الزعيم يقول إن الحروف العربية ليست من تراث القبيلة التركية . ثم انها مظهر من مظاهر العهد البائد : عهد الثقافة العربية والمدنية الاسلامية . وهى فوق ذاك ـ غل من الأغلال التى طالما قيدت الترك وملأت عقولهم بما ليس تركياً

وكمال يعرف أن أفراد قبيلته لا يتعصبون لشىء إذا فرض عليهم زعيمهم نقيضه ، فهو لذلك لا يتردد فى التصريح برغبته فى محو الحروف العربية واستبدالها بحروف لاتينية

ثم ان الحروف العربية ـ بعد ـ صعبة معقدة . وقراءتها قراءة صحيحة تستلزم الاحاطة بقواعد اللغة احاطة لا تتاح لكل متعلم . ولعلها فى اللغة العربية أسهل منها فى اللغة التركية حيث تستحيل القراءة والكتابة بها قبل ثلاث سنوات على اقل تقدير

وهناك حروف عربية كانت تستعمل فى لغة الاتراك استعمالات عجيبة : فحرف الكاف مثلا ينطق (كافا) إذا كتب بدون ملحقات ، وينطق (نونا) إذا وضعت فوقه نقط ثلاث وينطق (كافا) معطشة إذا وضعت فوقه شرطتان . .

وعند جمع الحروف فى الطباعة تجد حرف (الفاء) مثلا يكتب (ڤ) فى أول الكلام ، (ڤـ) فى وسط الكلام ، و (ف) فى آخر الكلام . .

فلماذا تتحمل القبيلة التركية كل هذا التعقيد من حروف ليست من تراث آبائهم الاولين فى مراعى آسيا ؟

ثم ان معظم الشعوب التركية الاسيوية نبذت الحروف العربية منذ أعوام واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، فلماذا لاتكون تركيا مثلها ؟ ولماذا لا تمهد تركيا ـ باتخاذ الحروف اللاتينية ـ لذيوع الثقافة التركية وامتدادها من مياه الدردنيل الى مياه المحيط الهادى ؟

« زعيم القبيلة الأكبر » يقلب الأمر على وجوهه أمام أفراد قبيلته فيرون معه أن الغنم فى الحروف الجديدة ، وأن الغرم كله كان فى الحروف القديمة

وهو يجلس فى منزله المشرف على انقرة وأمامه مائدة عليها كتب وتقارير كتبها نفر من الاخصائيين فى شئون الحروف الجديدة ، فيدرسها ويغير فيها ويبدل كما كان يفعل وهو جالس إلى خريطة تركيا الكبيرة وقد تراشقت فوقها الأعلام الصغيرة

ويظل فى عزلته هذه أياما يعد فيها خطة الهجوم ، ثم يظهر بغتة ، ويسافر الى استامبول فى صيف سنة ١٩٢٨ ـ لأول مرة بعد أن غادرها هو ورأفت عقب الاحتلال المشئوم . .

وفى استامبول يحيي الاتراك زعيمهم أروع تحية ، ويستقبلونه بمواكب تاريخية تتضاءل أمامها مواكب رأفت التى شهدناها من قبل ، ويجتمع سكان العاصمة حول كمال الذى انقذ الوطن ورفعه الى مصاف الدول الكبرى هاتفين مهللين ، فيمر خلال هذه المواكب وتحت أقواس النصر باسماً مسلما على الناس سعيداً بما قدمت يداه

* * *

قصر « ضوله باغجه » الجليل . مثوى سلاطين آل عثمان

القاعة الكبرى لا تزال كما كانت فى عهد عبد المجيد . وذئب انقرة واقف أمام الناس كما وقف عبد المجيد ووحيد الدين ورشاد وعبد الحميد من قبل

وأمام الذئب سبورة سوداء ، وطباشير ، وطلاسة . .

والقاعة تزخر بمئات من المدعوين . فيهم الشاعر والأديب والعالم والصحافي والنائب والتاجر والصانع والزارع والمعلم والطبيب والمحامى والقاضى . .

الجميع صامتون كأن على رءوسهم الطير فى انتظار أوامر الزعيم

وسرعان ما يتكلم الزعيم . فيعلن فى خطبة وجيزة نبذ الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية ، ثم يقف أمام السبورة ويشرع فى كتابة الحروف الجديدة بخط

واضح جميل ، وينطق بكل حرف عقب كتابته بصوت جهورى رنان

وبعد بضع دقائق يتم «درسه» الأول ، ويشرع فى تطبيقه على الحاضرين ، فيدعو أناساً منهم حيثما اتفق ، ويطلب منهم كتابة اسمائهم بالحروف الجديدة ، فيكتبونها بسرعة !

عجباً . . ان هذا الدرس كان يستغرق أياما فى عهد الحروف العربية . . والحاضرون يبعث فيهم الزعيم من روحه فيتحمسون للحروف اللاتينية ، ويصفقون ويهتفون . .

وفى الايام التالية :

الزعيم فى كل مكان فى العاصمة . فهو فى القصر يعلم الناس . وهو فى الطريق يعلم الناس ، وهو فى المساجد والقهوات ودور اللهو وصالات الرقص يعلم الناس

هوذا يمر فى طريقه بجماعة من الحمالين أو العمال ، فيدعو أحدهم ويسأله :

— هل تعلمت الحروف الجديدة يا صاح ؟

فيجيبه الحمال أو العامل سلباً . .

فيخرج ورقة من جيبه وقلما رصاصا ويظل يعلمه الحروف اللاتينية حتى يجيدها فى بضع دقائق . .

هوذا يدخل احدى الصالات باسم الثغر وافر النشاط فلا يرقص مع الراقصين بل يصيح فى وسط الصالة :

— قفوا . . اكفاكم رقصاً . .

فيقف العزف ويجمد الراقصون فى أماكنهم . فيحمل اليهم سبورته السوداء وطباشيره ويلقى عليهم « درسه » المعهود ، فيتعلمون الحروف الجديدة ، ثم يعاودون الرقص من جديد !

ثم يزور منطقة « جناق قلعة » حيث دحر الانجليز ، ويرفع سبورته السوداء حيث نصب مدافعه من قبل ، ويظل يعلم الناس حتى يقرأوا ويكتبوا فى بضعة اسابيع. وانك لتراه ثمة والابتسامة لا تكاد تغادر شفتيه ، فتنسى ذئب انقرة الى حين وتطبع فى صفحة ذهنك صورة « المعلم الأكبر »

أنه يتبسم .. ويضحك . . ويقهقه كلما رأى أحد الفلاحين يتعثر فى كتابة الحروف الجديدة . انه « يقفش » للناس « قفشات » ظريفة ، فيعجب الحاضرون ببديهته الحاضرة وروحه الخفيفة . وفى هذا « القفش » والضحك يساهم الناس ،ويتعلمون !

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٨ يخطب فى المجلس الوطنى الكبير فيحض الناس على تعلم الحروف اللاتينية ، ويقول إنها السبيل الوحيد إلى القفز فى طريق الثقافة العصرية

ثم يصدر قانون الحروف الجديدة فتنقرض الحروف العربية . . وكل شىء يطبع بالحروف اللاتينية . والصحف تصدر بها . والناس بها يتراسلون . والموظفون الذين لا يجيدونها من وظائفهم يفصلون . وفلاح أنقرة يتعلمها فى يوم ، ويقرأ بها ويكتب فى بضعة أيام !

وهي تصبح « مودة » العصر . والترك يتهافتون عليها فى شوق إلى العلم ولهفة إلى الثقافة . وحتى الأجانب يتعلمونها ويدرسون بها اللغة التركية ليكتبوا بها عرائضهم وحساباتهم الجارية

كان أقل من ١٠ ٪ يقرأون ويكتبون فى عهد الحروف القديمة . فأصبح أكثر من ٩٠ ٪ من الترك الآن يقرأون ويكتبون !

وكان الخاصة من الناس يتعلمون . فأصبح الناس كلهم يتعلمون الآن « بالجملة » ، فقد دفعهم الزعيم الى المدارس « بالجملة »

دفعهم بأمر عسكرى لبوه فى حماس . فهل يلام أحد بعد ذلك إذا سماه « رئيس أركان حرب التعليم والثقافة » ؟ !

* * *

وبعد ذلك كل شىء يجب أن يكون تركيا :

فالكلمات العربية والفارسية المندسة فى لغة الترك يجب أن تستبعد ، واللغة التركية يجب أن تعود إلى عهد القبيلة

والقرآن الكريم يترجم إلى التركية ليفهمه الناس

والأذان وخطب الجمعة تتلى بالتركية

والشركات الاجنبية يجب أن تكون تركية الصبغة ، وأن توظف الاتراك ، وأن تكتب حساباتها بلغة الترك ، وإلا فالطرد !

والمحامون والاطباء والمعلمون والمهندسون وكل ذى حرفة يجب أن يكون تركياً

والضرائب الفادحة تفرض على كل ما ليس تركيا من الكماليات والضروريات

والتقويم الجريجورى يحل محل العربى

والساعات العربية تحل محلها أختها الافرنجية

وفى يوم العطلة الرسمية يجب أن تغلق البنوك والشركات والمتاجر ، فاذا شاء الاجانب أن يحتفظوا بأيام أخرى لعطلتهم بعد ذلك فلهم ما يشاءون ، ولكن بعد احترام عطلة البلاد الرسمية !

والمدارس الأجنبية يجب أن تمحو معالم الدين المسيحى من برامجها . وأن توظف نسبة محسوسة من المدرسين الترك . وأن تعلم اللغة التركية كلغة أساسية ، والتاريخ والجغرافية التركية ومعظم المواد الدراسية باللغة التركية . .

وبعض المدارس تحاول التملص من يد الترك الحديدية ، فيصل نظارها اليها فى الصباح فيجدونها مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر ، فالزعيم جاد لا يهزل !

ولا تنقضى بضعة أشهر حتى تتبرم معظم المدارس الأجنبية باليد الحديدية ، فتشد الرحال إلى بلادها غير مأسوف عليها ، وسرعان ما تحتل المدارس التركية أماكنها

* * *

وبعد بضع سنوات :

كل شىء أصبح تركياً ، حتى الأسماء !

الزعيم يسمى الآن « كمال أتاتورك » *

ورئيس وزرائه يسمى « عصمت اينونو »

ووزير خارجيته يسمى « رشدى آراس »

وأفراد قبيلته يسمون « كولجاق » و « كورخان » وما أشبه من الأسماء التركية القديمة

والمرأة التركية تسمى « بايان فلانة » بدل « فلانة هانم »

والرجل يسمى « باى فلان » بدل « فلان افندى »

والألقاب كلها تلغى : فلا « باشا » ، ولا « بك » ولا « غازي » . . .

* * *

وتركيا الجديدة تقوم على أنقاض الماضى المنقرض فتية حية

وكل شىء فيها يتم بما يشبه المعجزات ، ولا عجب فالزعيم يأمر ، والقبيلة تطيع !

---

* كان اسمه مصطفى . وأطلق عليه اسم « مصطفى كمال » أحد مدرسيه فى مدرسة سلانيك الحربية . أما الآن فقد اقتصر على كلمة كمال ــ ومعناها بالتركية « القلعة » وأضاف اليها لقب « أتاتورك » ــ وهي كلمة تركية معناها « أبو الأتراك »

وأنقرة : القرية الحقيرة التى شرع كمال يؤسس فيها جمهوريته ، والتى كانت عبارة عن بعض أكواخ صغيرة ومنازل حجرية منفرة يشرف عليها منزل الزعيم من عل ، والتى كانت تحيط بها المستنقعات وتسمم هواءها الأوبئة ، والتى تحيط بها المراعى . . . أنقرة هـذه أصبحت عاصمة عظيمة يحق للترك أن يفتخروا بمبانيها الضخمة وميادينها الجميلة وتماثيلها ومدارسها ومستشفياتها ومصارفها ودور وزاراتها ومعاهدها . . .

ولطالما نصح المهندسون والفنيون لكمال بنبذ هـذه القرية الموبوءة لاستحالة تحويلها الى عاصمة كبيرة ، فلم يعبأ بهم كمال وأمر فردمت المستنقعات ، وأمر فطهر الجو من الجراثيم والأوبئة ، وأمر فزرعت الأشجار والحدائق ، وهنا أكد الزراعيون استحالة نمو هذه الاشجار ، ولـكنها نمت ـ وما زالت تنمو ـ وانك لترى أنقرة الآن تـكتنفها أشجار باسقة بديعة !

وفى أول الأمر رفض سفراء الدول الأجنبية أن ينتقلوا الى العاصمة الجديدة ، وألحوا فى ضرورة البقـاء فى استامبول ، فأبى الزعيم إلا أن يقيموا فى العاصمة ، فجاءوها بعد تمرد واحتجاج ، وما زالوا فيها مقيمين . . .

القوانين الجديدة

ليس الانقلاب الذى أوجده الزعيم ثورة على القديم وحسب ، ولا هدما وحسب ، بل هو خلق جديد وبناء

والزعيم يود أن تكون الرابطة التى تشمل الاتراك هى « القومية التركية » لا الجامعة الدينية أو المذهبية

والآن وقد غير وبدل ، وهدم وبنى ، وجعل كل شىء تركياً ، بقى عليه أن يوحد القوانين بحيث تكون صورة مجسمة لحاجات العصر ومشاكله التى تتغير وتزداد تعقداً فى كل يوم

والزعيم لا يؤمن ببقاء شىء واحد على حاله . ونظرته الى الحياة نظرة عملية حسابية . وهو لا يهاب التعرض لاقدس ما فى الحياة بالتغيير والتبديل . لذلك نراه الآن متحفزاً لوثبة سوف تقلب قوانين البلاد رأساً على عقب ، ثم توحدها فى شكل قانون واحد يجمع ما بين القوانين الاوربية وحاجات الترك

وللزعيم أنصار خارق ذكاؤهم حديدية ارادتهم . وهو الآن يأمرهم بالاستعداد للانقلاب المنتظر . فيستعدون ، ثم يأمرهم باعداد القوانين الجديدة . فيعدون قانونا مدنياً مقتبساً من القانون المدنى السويسرى ويطرحونه أمامه ، فيعدل فيه قليلا ويطرحه على المجلس الوطنى الكبير ، فيقبله المجلس فى ابريل سنة ١٩٢٦ . ثم يعدون قانونا جنائياً مقتبساً من القانون الجنائى الايطالى ، فيعيد اليه عقوبة الاعدام ويطرحه على المجلس ، فيقره فى أول يوليه سنة ١٩٢٦ . ثم يعدون قانونا تجاريا هو مزيج من القوانين التجارية الالمانية والفرنسية والايطالية ، فيوافق عليه المجلس فى ٤ اكتوبر سنة ١٩٢٦

وبذلك تصبح القوانين التركية خلاصة باهرة لاحسن القوانين العالمية ، وصورة حية للمدنية الاوربية ، مدنية القرن العشرين

بل إن القوانين التركية تصبح أوفى وأرقى من قانون أية دولة أخرى ، لانها خلاصة سائر القوانين ، ولان فيها من كل قانون أحسنه

وبذلك تزول الى الابد فوضى القوانين القديمة ، ويزول القانون الشرعى والمحاكم الشرعية ، ويزول شبح الامتيازات والمحاكم المختلطة والقنصلية والملية ، فالأجانب الذين كانوا يرفضون التقاضى أمام المحاكم التركية الشرعية ، أصبحوا الآن أمام محاكم قوانينها خير من قوانين بلادهم ، فكيف يرفضون التقاضى فيها ، وكيف يستهجنونها بعد الآن ؟

يعجبنى والله هذا الزعيم ! . .

فهو لم يشفق على القوانين القديمة ولم يعمد الى تعديلها أو ترميمها ، بل طحنها وأقام على انقاضها القوانين الأوربية . ولو أنه لم يفعل ذلك ما اطمأن الاجانب قط الى الغاء الامتيازات فى تركيا

ثم انه ـ وهو الهدام البانى ـ يضرب للاتراك مثلا جديدا فى وجوب التحرر من القديم النخر جملة ، واعتناق كل ما هو جديد صالح دون التفكير فى التعديل أو الترميم أو الترقيع . وهذا الروح الهدام البانى هو الذى أتاح لتركيا الجديدة هذا القفز الجبار فى عالم المدنية الحديثة

* * *

وفى سنة ١٩٢٧ نرى الزعيم على منبر الخطابة ستة أيام متوالية ألقى خلالها خطبة

واحدة ! وهذه الخطبة هي التاريخ المفصل للحركة الوطنية التركية

فى هذه الخطبة نسمع الزعيم يتحدث عن مسألة الدين ، ونراه يصف حديثا جرى بينه وبين أحد الصحافيين فى « ازميت » ، اذ يقول له الصحافى :

— ماذا سيكون دين الدولة الرسمى ؟

فيقول كمال :

— يوجد دين ياسيدى هو الدين الاسلامي

ثم يردف ذلك بقوله :

— والدين الاسلامى يضمن حرية الفكر . .

فيسأله الصحافى :

— هل يفهم من ذلك أن الحكومة ستدين بدين من الاديان ؟

فيجيبه كمال :

— لا أدرى هل ستدين أم لا تدين . .

ثم يخرج كمال من هذا الحديث الى مسألة الدين والدولة ، ويشير إلى مادتين فى الدستور التركى تنص إحداها — وهى المادة الثانية « على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة التركية ، واللغة التركية هى لغتها الرسمية ، وانقرة العاصمة هى مقرها » ، وتنص الأخرى — وهى المادة السادسة والعشرون — على أن « تنفيذ الأحكام الشرعية » من واجبات المجلس الوطنى الكبير

فيقول : « هاتان المادتان لا تتفقان مع شخصية الدولة التركية الحديثة وادارتها الجمهورية العصرية ، ولم نر بأسا فى بقائهما إذ ذاك . على أن الأمة يجب أن تقطع هذه الزوائد فى أول فرصة مواتية ! »

ولا يكاد ينقضى عام واحد حتى تزول جملة « الاسلام هو الدين الرسمى للدولة التركية » من المادة الثانية ، وحتى ترفع جملة « تنفيذ الأحكام الشرعية » من المادة السادسة والعشرين !

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يقسم النواب « بشرفهم » بدل قولهم « والله » ، وكذلك يفعل رئيس الجمهورية فى قسمه

أما الأوقاف الدينية فقد أصبحت « وقفا مليا » توزع الحكومة ريعه على الجمعيات الخيرية والبلديات والمستشفيات ، وكان من قبل يوزع على التكايا والدراويش المثلين

المرتكبين الذين يرقصون على ضرب الدفوف ويدورون على أعقابهم كما يدور « المكوك » !

* * *

وإذا سألتني عن رأيي فى هذا الانقلاب العظيم ، قلت لك إنه خير ما فعل كمال الزعيم ، فالحكومة العلمانية تقضى على آخر مظهر من مظاهر التعصب الدينى الذى كانت أوربا ترفع لواءه فى وجه الاتراك كلما حاولوا النهوض والتقدم . وكلمة « علمانى » لا تؤدى معنى « لا دينى » ، بل تعنى أن الحكومة التركية لا تؤثر دينا من الاديان على غيره . أما الشعب التركى فله دينه الاسلامى ، وللأقليات أديانها الأخرى . والجميع يعيشون فى سلام ووئام تظله حكومة متسامحة . والمساجد والكنائس عامرة والحمد لله بالمصلين المتهجدين . وقد شهدت ذلك عندما كنت فى تركيا وايقنت أن تديننا نحن لا يكاد يذكر إلى جانب تدين الاتراك . وشهد بذلك كل من زاروا تركيا من أنصار الجمهورية وأعدائها

القلم والمهند

« أيها المعلمون !

« سيكون الجيل القادم أثراً من آثاركم الجليلة . وعلى قدر مهارتكم وتضحياتكم سيكون هذا الأثر . . ان الجمهورية تطلب رجالا قادرين هم خلاصة الانسانية فكراً وعلماً وجسما . . وهذا الذى تطلبه الجمهورية فى أيديكم . . ان المعلمين ـ والمعلمين وحسب ـ هم الذين ينهضون بالأمم . . فالى الامام . . الى الأمام . . ودائماً الى الامام . . ! »

تلك كلمة الزعيم الذى سميناه من قبل « رئيس اركان حرب العلم والثقافة »

وعلى هذا النمط يسير التعليم فى تركيا بالجملة

والشباب التركى المتعلم يصبح صورة حية لتركيا الجديدة الوثابة ، وكثيراً ما كنت أقضى معه أياما متواليات أقلبه على وجوهه فلا أرى الا الذكاء والعلم والتأهب للحرب . فهو يحمل القلم فى شهور الدراسة ، والسيف والبندقية والمسدس والمدفع فى العطلة الصيفية

حدثنى أحدهم ، قال :

« لا تكاد تنقضى أيام الدراسة حتى يصدر الينا الأمر بالتوجه الى المعسكر . فنذهب اليه حيث نلبس ثياب الجنود ونشرع فى التمرين على اطلاق الرصاص

« وحياتنا فى المعسكر حياة الجندى المتأهب للقتال . نقوم مع الشمس على هتفات البورى ، وينام فى الليل فريق منا ويحرس النائمين فريق . وفى كل يوم تلقى علينا محاضرات فى أصول الحرب الحديثة . فى الحرب البرية والبحرية ، والجوية . . فى البنادق ، والمسدسات،والمدافع ، والسيوف ، والخيول ، وعربات الحرب ، والتانكس ، والغازات السامة ، والغازات المحرقة . . .

« وفى ختام مدة التمرين يقف أحد كبار الضباط فينا خطيباً ويقول : انتم تسيرون الآن على أرض تعرفون أنها لتركيا ، أما نحن فلم نكن فى زماننا نعرف أنها للاتراك . وأنتم ترون الراية الحمراء ترفرف فوق قلاعكم ، أما نحن فكنا نرى رايات الاعداء فوق قلاعنا . تلك مفاخر تركيا الجمهورية ومفاخر الزعيم . . فاهتفوا معى : لتحي الجمهورية ، وليحي الزعيم ! »

أما الزعيم فقد قال لهم من قبل :

« يا شباب الترك !

« واجبك الأول الحرص الى الأبد على الاستقلال التركى والجمهورية التركية والدفاع عنهما

« هذا هو الأساس الوحيد لكيانك ومستقبلك . وهذا الأساس هو أنفس ذخر من ذخائرك . وقد تصطدم فى المستقبل بأصحاب الأغراض الدنيئة فى الداخل والخارج ممن يحاولون حرمانك من هذا الذخر ، فتضطرك الحالة فى يوم ما الى الدفاع عن الاستقلال والجمهورية . . فعليك ألا تفكر إذ ذاك فى الظروف المحيطة بك وهل هى مواتية أو غير مواتية . .

« وقد تبدو الظروف المحيطة بك فى مظهر لا يدعو الى الارتياح . . وقد يكون الأعداء الذين يحاولون المساس بجمهوريتك فى مظهر يدل على أن العالم أجمع قد تألب عليك لقهرك والقضاء عليك . . وقد تتطلع فيما حولك فترى أن قلاع وطنك العزيز قد سلبت ، وان العدو يحتل جميع موانئك ومرافئك ، وان الجيش قد تبدد وان الاحتلال العسكرى قائم فى كل ركن من أركان البلاد . . وقد ترى فوق هذا

وذاك ما هو أدهى وأمر : قد ترى أن أصحاب النفوذ والشخصيات الكبيرة فى غفلة وضلال . . بل قد يتردون فى مهاوى الخيانة . . وقد تراهم يظاهرون العدو المحتل ويسهلون له مآربه السياسية ليسهل لهم بدوره مصالحهم الشخصية . . وقد تكون الأمة فى فقر وضنك منهوكة القوى قائمة فوق أنقاض الخراب . .

« أيها الشباب التركي . . يا ابن تركيا العتيد . . قد ترى كل ذلك ، فواجبك فى كل هذه الحالات أن تعمل على انقاذ بلادك واستخلاص استقلالها وجمهوريتها من مخالب الأعداء . ولا تبحثن عن القوة فهى كامنة فى دمائك الاصيلة التى تجرى فى عروقك ! »

* * *

ومن هذا الشباب يتألف الجيش التركى : جيش محمد الفاتح وسليمان القانونى وسليم ، جيش الامبراطورية العثمانيـة الذى دوخ العالم وكان يقاتل على أبواب فينا وفى قلب الروسيا وعلى حدود الهند وفى الحجاز واليمن . . الجيش الذى كان ينشده نابليون ليفتح به الدنيا بأسرها . . وأخيراً جيش كمال فى غاليبولى وسقاريا !

هذا الجيش أصبح الآن لتركيا ، وتركيا وحسب ، والشتات القديم أصبح مركزاً داخل حدود الترك الجديدة . لذلك تراه قطعة واحدة تسور قبيلة كمال أتاتورك بسور من الفولاذ

وكمال داهية الحرب يعرف جيشه من ألفه الى يائه ، ويعرف جيوش العـالم وما تحمله من سلاح وأدوات جهنمية ، فهو لذلك جهنمى فى استعداده للحرب ، جهنمى فى اشرافه على الجيش ، جهنمى فى كل ما يمس سلامة الوطن !

وكأنى أراه الآن فى الحرب المقبلة ـ لا قدر الله نشوبها ـ جاثماً فوق أرض بلاده وأمامه خريطتها وفوقها الاعلام الصغيرة . . كأنى أراه وهو يدير الحرب بأعصاب من حديد . . كأنى أراه يؤدى ضربة الحرب الى عزرائيل دون كلام أو تردد ، فأرى ذئب غاليبولى وسقاريا . . أراه كما كان وحيثما كان حديداً جليداً . . .

هل أفلس الزعيم ؟

وعلى حين غرة ، ودون سابق انذار ، تقف الدائرة وتثوب الدوامة الهوائية الكبرى الى سكون لا عهد لتركيا به منذ سنة ١٩١٩

ولا يكاد الناس يقدرون على الوقوف على أقدامهم من هول السكون المفاجىء ، بعد الانطلاق الطويل مع الدائرة التى كانت تدور ، وتدوى وهى تدور

ماذا حدث ؟

هل قضى « زعيم القبيلة الأكبر » نحبه ؟

كلا . انه مقيم فى حدائق « يالوفا » بالقرب من استامبول . وإنه سعيد بالمقام هناك حيث الهواء والماء والطبيعة الحسناء

اذاً ماذا جد فى الأمر ؟ هل تعطل الجهاز الجبار ذو الأذرع الست ؟

كلا . فالجهاز كان لا يزال دائراً الى ساعة قريبة . .

كنت فى تركيا إذ ذاك . وأشهد انى كنت أتساءل مع المتسائلين ، وأذهل مع الذاهلين ، حتى مرت أيام سمعنا فيها ما سمعنا من حدوث حدث طارىء ، ففهمت السر فى هذا الوقوف المفاجىء :

« زعيم القبيلة الأكبر » كتلة من الحديد والجليد تركزت فيها خلاصة ما فى دم التركى من كفاح ودهاء . وهو فى هذا الصيف (صيف سنة ١٩٣٠) يريد أن يضرب لأفراد قبيلته المثل المادى على أنهم فى داخل الدوامة الكبرى خير مما كانوا فى العهود المنصرمة ، فهو لذلك يمد يده الى الجهاز ذى الأذرع الست فيوقفه عن الحركة ، ثم يقوم من مقعده فى مركز الجهاز فى أنقرة وينزل فى قصر فى « يالوفا » حيث ينسج خيوطه استعداداً لضرب المثل

ولقد سمعت ـ وأنا مقيم فى استامبول ـ نفراً من الرجعيين يقولون ان وقوف الدائرة دليل على افلاس الزعيم وإفلاس فلسفته التى قامت عليها الدائرة والجهاز ذو الأذرع الست . فكنت أسخر من أقوالهم وأقول : « انتظروا فعما قليل تتجلى لكم حقيقة الزعيم » . فيقولون : « لقد انجلت الحقيقة منذ أسابيع ، إذ بعث فتحى بك سفيرنا فى باريس الى كمال خطاب احتجاج طويل يعلن على عصمت فيه حربا شعواء وينعى على الحكومة عجزها عن ادارة البلاد وسيرها بها الى وهدة الافلاس والدمار . فماذا تقول بعد ذلك ؟ » فكنت أقول لهم : « انتظروا .. فالزمن وحده كفيل باظهار زعيمكم على حقيقته »

وكنت وأنا فى استامبول لا أخفى اعجابى بهذا الزعيم الداهية الذى أوقف الدائرة وكأنه أفلس حقيقة ، واستدعى فتحى من باريس وكأنه أصاخ السمع الى احتجاجه

الطويل ، وهدد عصمت بانقضاء أجله السياسى وكأن عصمت لم يعد يصلح لشئون الحكم . . .

أجل كنت أعجب بهذا الزعيم ، وكان اعجابى به يزداد كلما تصورت الخطر الجاثم فوقه وهو بعيد عن مركز الدائرة ، هذا الخطر الذى يدركه كل من يدرس حياة الأتراك ويعرف أنهم لا يتعصبون لشىء ولكنهم ينقلبون مردة وشياطين اذا لم يروا « زعيم القبيلة » أو دائرته التي تدور فتشملهم فى دوامتها الكبرى

ولكن مصطفى كمال لا يرهب شيئاً . وهو فى انسحابه هذا من مركز الدائرة انما يعتبر نفسه فى « عطلة صيفية » سوف يقضيها فى حدائق « يالوفا » الغناء ناعم البال هادىء الاعصاب ، فاذا ما تطورت الأمور تطورها المنتظر الخطير فليس أسهل عليه من العود الى الذئب ونظرات الذئب النارية ، ثم الجلوس فى مقعده فى مركز الدائرة لتعاود دورانها من جديد !

أجل والله . . هذا مصطفى كمال الذى تصورته وأنا على ضفاف البوسفور فى صيف سنة ١٩٣٠

وبهذا الروح يجلس كمال فى حدائق « يالوفا » ليستمع الى نقاش حاد بين فتحى وعصمت :

فهذا سفير تركيا فى فرنسا يهول من شأن المأساة التركية الكبرى التي وضع عصمت فصولها بحماقته وجهله وتعصبه ، وها هو ذا الفصل الاخير من المأساة يوشك أن يختم بفاجعة دونها فواجع العهد المنقرض . .

وهذا عصمت : رجل الحديد والنار يجلس صامتاً لا يتحرك . فاذا استفزه كمال وطلب منه الدفاع عن نفسه تراه يقول ببروده المعهود : « ليس هذا مكان النقاش فى شئون الحكم ، فهنالك مجلس نيابى تدور المناقشات بين جدرانه . فليبرز فتحى أو من شئت غيره الى الميدان ، وليحملوا على عصمت ما شاءوا من حملات ، وعلى عصمت بعد ذلك أن يدافع عن نفسه . . »

كلام معقول يقبله كمال ، ويقبله فتحى أيضا

* * *

فيخطو كمال خطوته الثانية إذ يعلن على الملأ أنه راض عن فتحى ولمعارضته الجديدة محبذ متحمس ، فعلى من شاء من أفراد القبيلة أن ينضم الى حزب فتحى

الجديد ، وله بعد ذلك أن ينتقد الحكومة كما يشاء وتتطلب مصلحة الوطن

ثم يأمر أخته « مقبولة » ونفراً من أقرب المقربين اليه بالانضمام إلى الحزب الجديد ، فينضمون اليه طائعين ، ويتحمسون لمبادئه طائعين أيضا !

وأفراد القبيلة الذين انقلبوا الآن مردة شياطين ينشطرون فريقين : فريق متحمس لعصمت جداً ، وفريق متحمس لفتحي جداً

* * *

ثم يخطو كمال الخطوة الثالثة :

فنرى فى أزمير أول حفل سياسى حر عرفته تركيا مذ بدأت الدائرة تدور ، ونرى الناس يهرعون الى حيث وقف فتحي يخطب فى زرافات متحمسة تشهد فى أعينهم لمحات من التمرد والثورة

ويخطب فتحي ، فتنطلق السهام من فمه وتكاد تصيب كبد عصمت

ويخطب عصمت ، فتنطلق السهام من فمه وتكاد تصيب كبد فتحي

وتصفق الجماهير وتهلل لهذا أو ذاك . وتتعالى الهتافات الودية والعدائية . وتنطلق المظاهرات فى طرقات أزمير وما حولها صاخبة ثائرة ، ترفع هذا الى السماء وتهوى بذاك الى الحضيض

* * *

ثم يخطو كمال الخطوة الرابعة :

نحن الآن فى أنقرة ، فى المجلس الوطنى الكبير

كمال لقن كلا من عصمت وفتحي درسا فى آداب المناقشة ، فهما على منبر المجلس عدوان لدودان ، وفى خارج المجلس صديقان متصافيان . . .

وهذا الدرس بعينه يلقى على سائر النواب بطريقة غير مباشرة

ثم يجتمع المجلس للنظر فى خصومة رجلى الساعة

فيقف فتحي وأعضاء حزبه الجديد فوق المنبر ويوجهون الى حكومة عصمت قارص الكلم ، ويتهمونها بأنها أوشكت بالبلاد على الافلاس والخراب : فهذا التعصب ضد الاجانب ما معناه طالما أن البلاد فى حاجة إلى رءوس الأموال الاجنبية ؟ وهذا النظر الضيق ماذا نسميه ان لم يكن غباء وسيرا بالحكومة الى شرفة الهاوية ؟ وهذه السكك الحديدية التى عقدها الحكومة ما لزومها إذا كانت لاتغل ربحا ولاتجدى فتيلا ؟

وهذا الاحتكار لسائر موارد البلاد ما الداعى له بعد أن تبين للناس أنه العلة فى كل هذا البلاء ؟ وهذه اليد الحديدية التى تكم الأفواه وتخنق الأنفاس ما خطبها ونحن نعيش فى عصر الحرية ؟ وهكذا حتى يخرج الناس من تلكم الحملات بأن عصمت رجل خائن يجب التخلص منه ومن يده الحديدية بأسرع ما يمكن . . !

ثم يخلو الميدان لعصمت ، فيتكلم ، ويتحمس ، ويثور فيدمدم ويصيح بأعلى صوته : هذا التعصب ضد الأجانب معناه زوال هيمنة الأجانب علينا الى الابد . . . وهذا النظر الضيق ليس غباء بل هو عين ما نراه فى كل أمة تتعصب لقوميتها فى عصر الحق فيه للقوة والويل للضعيف . . وهذه السكك الحديدية لا أبغى منها الربح وانما أبغى سهولة المواصلات فى ساعة الحرب إذ أحمل جنودى من شرقي الأناضول الى غربيه فى ساعات معدودات . . وهذا الاحتكار قضى على وساطة كبار الممولين ولم يعد يتيح لأحد أن يتلاعب بعد الآن بأهم مرافق الحياة . . أما اليد الحديدية فلا وجود لها طالما كان الرجعيون مندسين فى أوكارهم أو مشردين فى أقصى الأرض .. وهكذا حتى يعود التيار فيندفع معه بشدة . .

وينزل عصمت من فوق المنبر ليعانق فتحى ويسير معه ضاحكا متلطفا كما أمر الزعيم !

ولكن النواب ينسون الدرس فى ساعة الغضب والتحمس ، فيسبون ويلعنون ، ويقبضاتهم فى الهواء يلوحون ، وبمسدساتهم يهددون ، وبالسكاكين يتناحرون ، وانك لتسمع فى هذه الفوضى الرهيبة دوى الطلقات وهزيم المتافات الثائرة وقعقعة الاثاث المحطم !

* * *

ولا تكاد هذه المناقشات والمشاحنات تذاع ، حتى يندلع لهيب المعارضة فى كل مكان : الزراع ، والتجار ، والصناع ، والمدرسون ، والاطباء ، والمهندسون ، وكل ذى حرفة ينغمر فى خضم السياسة الى شوشته . .

وعلى القهوات يجلس هلافيت السياسيين فيتناقشون ويتضاربون ، ثم يحررون آلافا من العرائض ويرسلونها الى القرة . .

وفى الطرقات يترك الناس أعمالهم ويجتمعون حيثما سمعوا خطيباً يخطب ، أوسياسياً هلفوتاً يتحدث ويتحمس . .

وهذه الجماعات تتشاحن ، ثم تتضارب وتتطاحن بالعصى والمدى والمسدسات . .

وفى القرى البعيدة عن العاصمة والبنادر تخرج بقية الرجعيين من أوكارها وتعود الى اعلان الحرب على كمال الكافر وحكومته الكافرة . .

وعلى الحدود الشرقية تقوم فلول الأرمن بثورات دامية تذهب فيها مئات الضحايا . .

والاكراد يرفعون « علم النبوة الأخضر » فوق جبالهم ونجادهم وينحدرون به الى القرى التركية المجاورة فتصطبغ أرضها بالدماء وتتناثر فوقها آلاف الاشلاء . . .

وفى قرية « منيمن » بالقرب من ازمير يقوم دعى من الادعياء يدعى « محمداً » ويزعم أنه المهدى المنتظر ، فتجتمع حوله فلول الدراويش الذين اخرجهم كمال من أوكارهم وتكاياهم ودفع بهم الى عالم الكسب الشريف ، وتقوم ثمة ثورة محلية خطيرة . . .

ويحاول ضابط تركى يدعى « قوبلاى » مقاومة النبى الكذاب فيقبض عليه الشيخ محمد ويذبحه ذبح الشاة أمام مئات من الدراويش والرجعيين الهاتفين المهللين : الله اكبر ! الله اكبر !

قضى الأمر . . وعادت الرجعية تمثل دورا من أدوارها التى خلنا أنها انقضت ودفنت تحت انقاض العهد البائد ! !

* * *

تركيا فى خطر . والاستقلال فى خطر . والجمهورية فى خطر . .

أفراد القبيلة يعاودهم الحنين الى دائرة الزعيم الأكبر التى تدور فتدور معها الدوامة الهوائية الكبرى فتدير كل شىء . .

وهذا الحنين ينقلب رجاء ، فتوسلا . . .

ولسان حال القبيلة يقول : عد أيها الزعيم إلى سابق عهدك ، ولا تدعنا ننقلب فى غيبتك مردة شياطين ، وارحنا من بقايا الرجعية ورءوس الرجعيين . .

ولكن الزعيم يصم أذنيه دون توسل افراد قبيلته . فنراهم بعد قليل له ساجدين ولرسالته مقدسين . .

وعندئذ ــ وبعد أن يوقن الزعيم أن المثل الذى ضربه للقبيلة استقر في القلوب حيث تستقر العقيدة ــ يتحرك الرجل الجليد فينقلب ذئباً تقطر الدماء من مخالبه، وتتألق

فى عينيه نظرات غاليولى وسقاريا النارية ، ويذهب الى مركز الدائرة حيث يستقر على مقعده العتيد ، ويمد يده الجبارة الى الأذرع الست ويدفعها بقوة ، فتدور ، وتدور معها الدائرة كما تدور الرحى ، فتطحن فتحى وحزب فتحى ، وتطحن المتذمرين وهلافيت السياسة والشاكين ، وتطحن الارمن ، وتطحن الاكراد ، وتطحن الشيخ محمداً ، وتطحن البقية الباقية من دعاة الرجعية والعود الى القديم !

وبعد بضعة أسابيع تقف الرحى حيث طحنت آخر الرءوس ، وتتابع الدائرة دورانها فتشمل الاتراك بدوامتها الكبرى من جديد . .

وانك لتسمع خلال أزيز الدوامة اصواتا سعيدة تشق عنان السماء هاتفة : « ليحي زعيم القبيلة الاكبر ! »

رجل المعجزات

الزراعة ، ولا شيء الا الزراعة . والصناعة ، ولا شيء الا الصناعة . والتجارة ، ولا شيء الا التجارة . والعلم ، ولا شيء الا العلم . والسلام ولا شيء الا السلام . والحرب ، ولا شيء الا الحرب

تلك أوامر الزعيم . وهى تطاع كأنها أوامر مقدسة . وكل ذى حرفة يقوم بها بنفس الروح التى يجاهد بها الجندى فى خط النار

والزعيم تراه فى كل مكان :

فهو زارع يحمل الفأس مع الزراع

وهو صانع يحمل المطرقة والسندیان مع الصناع

وهو تاجر يبيع مع التجار

وهو معلم يقف أمام السبورة كالمعلمين

وهو ملاك السلام !

وهو إله الحرب !

وتركيا تتقلب فى بضع سنين بلدا زراعيا تجاريا ، والاتراك يتعلمون ، ويعملون للسلام كما يستعدون للحرب

وأفراد القبيلة فى هذا الكفاح الجبار سعداء فخورون بما صنعت أيديهم وما صنع

لهم الزعيم ، شامخو الانوف ، مؤمنون بأنهم أعضاء حية قوية في جسم الانسانية والمدنية الحديثة

وهذا الايمان يدفعهم الى الاتيان بالمعجزات في سائر ميادين النشاط الانسانى :

فملابسهم كلها تصنع في تركيا ، ومنازلهم وأثاثهم يصنع في بلادهم ، وأدواتهم ومصنوعاتهم منهم واليهم ، ومعظم بنادقهم ومدافعهم ورصاصهم وقنابلهم تصنع في المصانع التركية ، وحتى الطائرات والبواخر وقضبان السكك الحديدية يصنعها الأتراك !

ومدافعهم تعرض في معرض اليونان الى جانب المدافع الاوربية ، فتقرر لجنة فنية عسكرية أنها أمتن من سائر المدافع المعروضة !

ومنتجات أرضهم ومواشيهم تباع فى أسواق موسكو ولندن وباريس

وعلماؤهم يضيفون الى قائمة المخترعات الحديثة اختراعات جديدة

واحدى نسائهم تركب صبغات جديدة تفوق الصبغات الألمانية الشهيرة

كل هذا يراه الزعيم فيبتسم . ويراه الاتراك فيزيدهم بقوتهم ايماناً فوق ايمانهم

* * *

فاذا انتقلنا الى عالم السياسة الدولية رأينا عجبا :

فالدب الروسى عدو الترك اللدود في أيام سلاطين آل عثمان يصبح صديقا لذئب انقرة وحليفا

والبلقان الذى لم يعرف الاستقرار قط ، يكاد يستقر تحت راية الزعيم التركى

واليونان . . اليونان التى قادها فنزيلوس الى قلب الأناضول قبل بضع سنوات تتقرب من الذئب التركى ثم تعانقه وتقبله بحرارة وشغف !

وفرنسا صديقة للروسيا ، فهى لذلك صديقة لتركيا

وانجلترا : سيدة البحار التى لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، ترى أن البحار يكاد زمامها يفلت من يديها ، وأن الشمس تكاد تغيب عن بعض ممتلكاتها ، فتغير اتجاه سياستها العدائية نحو تركيا وتنقلب صديقة لها ، وتروح تغازل ذئب انقرة حتى يهش لها فتبادر الى تقبيله أيضا !

والذى أود أن أسجله لتركيا هنا بمداد الفخر ، أنها كانت أول دولة شرقية عرفت كيف تقاوم انجلترا وتحملها قسرا على احترامها والاعتراف لها بحق الحياة والسيادة

في عصر طالما تنمرت فيه سيدة البحار وأملت علينا ارادتها وانفنا في الرغام

أجل لقد عرف ذئب أنقرة كيف يسوس انجلترا التي لا تحترمك الا اذا قهرتها ، ولا تعترف لك بحقك الا اذا ارغمتها على أن تعترف به

انجلترا هذه تلقت من ذئب انقرة ضربة قاصمة في غاليبولى . وتلقت الضربة الثانية فى عهد الاحتلال . والثالثة في حرب الاستقلال . فلما شبعت أم رأسها من الضرب ، عادت اليه في جلد الحمل وراحت تتودد اليه وتتوسل ليكون لها نصيرا فى أزمتها الطارئة المخيفة ، أزمة قيام الفاشستية في ايطاليا وتهديد موسولينى بجعل البحر الابيض بحيرة ايطالية

وذئب انقرة داهية من دهاة السياسة . وهو يعرف أن انجلترا محتاجة اليه . ويدرك أن البحر الابيض قد يصبح بحيرة ايطالية ، وأن انجلترا التى تملك مفتاح جبل طارق وكانت تتحكم فى البحر الابيض ، تكاد تفقد هذا المفتاح فتفقد سيادتها على طريق الهند، فهو لذلك لا يتهافت على صداقتها بل يسوق عليها الدلال . .

وهذا الدلال لايكاد جون بول يحتمله . . فالازمة عصبية . وموسولينى لايرحم ، وأوربا فى فوهة البركان . وفرنسا الصديقة تتذبذب ، وألمانيا ، تتنمر ، واسبانياتتشقلب والشرق الأدنى لايستقرعلى حال ، والحبشة تفترسها ايطاليا ، وحدود السودان مهددة. وطريق الهند فى خطر !

وأخيراً . . وبعد طول دلال . . يرضى الذئب بصداقة انجلترا ، ويعدها بالمساعدة ولكن على شرط : هو الاعتراف بحق تركيا فى تحصين الدردنيل !

فتقبل انجلترا هذا الشرط . وسرعان ما تهتز الاسلاك البرقية معلنة للعالم أجمع نجاح مؤتمر مونترو والاعتراف بحق تركيا فى تحصين دردنيلها . . .

ويقف ذئب انقرة فوق مرتفعات الدردنيل ليشرف على عمليات التحصين ، فترى فى عينيه نفس البريق الذى رأيناه من قبل وهو يحصد بمنجله أرواح عشرات الألوف من الانجليز والاستراليين فى سنة ١٩١٥

لقد انتصر جيشه إذ ذاك . وانتصرت جمهوريته اليوم !

* * *

أما ايطاليا . . فله معها شأن آخر :

فى ذات يوم يركب موسولينى رأسه ويقف فى أحد ميادين روما خطيباً ويقول:

إن ايطاليا فى حاجة الى التوسع فى آسيا وافريقيا . .

ولايكاد البرق يحمل هذا التصريح الخطير الى انقرة حتى يرق ذئب انقرة ويرعد ، ويستدعى سفير ايطاليا اليه على وجه السرعة . .

وعندما يقبل السفير الى « تشان كايا » يستقبله الذئب في حلة مدنية ، ثم يرجو منه أن ينتظر قليلا ريثما يعود . .

وبعد بضع دقائق يعود فاذا هو في بذلة عسكرية . . بذلة ميدان . . !

فيفغر السفير فاه من فرط الدهشة . .

ولكن الذئب لا يدعه يندهش طويلا ، فهو يبادره بقوله :

« هأنت ترانى أيها السفير وقد غيرت ثيابى ولبست البذلة العسكرية فى بضع دقائق.. فاذهب الى رئيسك موسولينى وصف له ما شاهدت ، وقل له نيابة عنى إن تركيا بدورها تلبس ثيابها العسكرية وتنقلب فى حالة حرب فى بضع دقائق أيضا ! ! »

ويخرج السفير من عند الذئب ليبلغ موسولينى ما رأى وسمع . فيعتذر موسولينى عما بدر منه ، ويصرح بأن تركيا لم تكن تخطر له ببال عندما صرح بما صرح !

بيد أن الذئب لا يكتفى بهذا الاعتذار . بل يسوق قطعاً جبارة من جيشه الى ازمير حيث يقوم بمناورات عسكرية واسعة النطاق ،وكأنه يقول لدكتاتور ايطاليا : « ها هي ذى تركيا انقلبت معسكرا . . »

* * *

وأما الشرق فله منه دولتان كبيرتان هما ايران وافغانستان

الأولى نضجت واتخذته استاذا . والثانية أوشكت أن تنضج

وفى المستقبل القريب سوف نرى سوارا من الحديد والنار يمتد من استامبول غربا الى قلب آسيا شرقا ، إلى حدود الهنـد ، إلى جبال التركستان ، الى سور الصين الجبار . . .

بشر فوق البشر

. . وهكذا تمر السنون وتتم الدائرة دورتها لتعاود الدوران من جديد . وهكذا يؤدى كمال أتاتورك رسالته الانسانية الكبرى حيث يجلس فى مركز الدائرة

العالم كله يتراوح بين الشك واليقين ، فتقوم هنا شيوعية مدمرة حمراء ، وتقوم هناك اشتراكية ليست مدمرة وليست حمراء ـ ولكنها مقلقلة ، وتناهض كليهما تلك النكبة الانسانية الكبرى التى يسمونها « الفاشستية » أو « النازية » ـ وأقول « النكبة » لانها قائمة على أساس من الهمجية ، ولانها لاتعرف من الحياة إلا أن المانيا أو ايطاليا فوق الجميع ، ولاشيء إلا المانيا أو ايطاليا ، ولا حياة الا لالمانيا أو ايطاليا ، ولا سعادة إلا لالمانيا أو ايطاليا ، أما الباقون فشعوب نجسة ومدنيات مضمحلة . .

هذا العالم المصطخب ما أشأمه إذا قيس بعالم أتاتورك المؤمن العامل !

إن هذا الرجل الجاثم فى مركز الدائرة فى انقرة ليس شيوعيا أحمر ، ولا اشتراكيا أغبر ، ولا نازيا أزرق ولا فاشستيا اسود ، بل هو « انسان » . انسان يدافع عن بلده حتى يستقل ، ثم يعمل على توفير اسباب الرفاهية له ، ولا يفكر فى الحرب الا مدافعاً عنه

وهو فى « انسانيته » هذه صاحب مذهب عالمى جديد ورسالته انسانية كبرى قوامها « السلام . والحرب للدفاع عن السلام والوطن » . والجديد فى أمره أنه يختلف عن أصحاب المذاهب والرسالات فى أنه عملى ومعظمهم خياليون ، وأنه عاكف على قطعة من الارض يصلحها وهم يعكفون على الكون كله يصلحونه . فالسلام عندهم حب وصفاء وسعادة ، وعنده مال وزرع وضرع وصناعات وحديد ونار : فالمال والزرع والضرع والصناعات لتوفير اسباب الرخاء ، والحديد والنار للدفاع عن هذا الرخاء . وهو اذ يعكف على رقعة تركيا وحدها ليصلحها يؤدى للانسانية من الخدمات مالا يؤديه مصلح الكون أجمع ، فاصلاح قطعة من الارض يسهل على الانسان القصير أجله ، ويصبح بعد ذلك مثلا يحتذى وانموذجا يقلد . أما اصلاح الكون فمحال . . ثم ان المصلحين وأصحاب الرسالات لا يملكون من وسائل الاصلاح الا الفكرة ـ والفكرة وحسب ـ أما هو فيملك الفكرة ووسائل التنفيذ

***

ولا يظنن ظان أننا اذ نتحدث عن كمال أتاتورك « الانسان » نود أن نقول إنه انسان مثلى ومثلك ، نصفه عاطفة وغرائز ، ونصفه خيال ، وما يبقى منه بعد ذلك عقل ومنطق وفكر راجح ! كلا . . . فكمال أتاتورك زعيم ، وأول صفات الزعيم أنه « بشر فوق البشر »

ولو أن المؤرخ أو العالم النفسانى يتاح له تحليل الناس الى عناصرهم الأولية ، اذاً لرأينا فى جسم كمال أتاتورك عجبا : فكل ذرة من ذرات جسمه هى خلاصة طبع من طباع الاتراك . وهذه الذرات كلها مجتمعة هى التى تتيح له ان يكون « بشرا فوق البشر » و « تركيا فوق الاتراك » و « زعيما للقبيلة التركية »

وهذا الزعيم يجلس مع أفراد قبيلته بجسمه ، ومع الفكر المطلق بروحه . فاذا ثاروا رأيته حديداً . وإذا انصهروا رأيته جليدا . وإذا جمدوا رأيته ناراً . وإذا تشعبت بهم الطرق رأيته فى مجمع الطرق . وإذا انقسموا رأيته واحداً . وإذا انقلبوا على أنفسهم رأيته معتدلا . الفاس والسيف عنده سيان ـ والحقل وخط النار . والحياة والموت عنده صنوان ـ والميلاد والشهادة . كل هذا لابد منه فى هذه الحياة الدنيا ما دمنا فيها نعيش

لا صديق له ولا يصادق أحداً . ولا أحد يحبه وهو لا يحب أحداً . ولا عدو له وهو لا يعادى أحداً : الصداقة والحب والعداوة كلها من مظاهر الانسانية العادية . أما هو فبشر فوق البشر ، وزعيم يطاع ويخشى ، وهذه الطاعة وتلك الخشية تلبسان لبوس القداسة

ولطالما كافأ كمال أتاتورك رجالا وشنق آخرين . بيد أنه فى كلتا الحالتين كالبناء يضع الصخرة المهذبة فى مكان ممتاز ويحطم الأخرى ليدسها فى جوف الحائط . فالانصار الذين كافأهم ، والرجعيون الذين علقهم فى حبال المشانق، كلهم صخور بنى بها أتاتورك بيته العتيد

وسيكافىء كمال أتاتورك ويشنق رجالا آخرين . وسيبنى بيوتا أخرى ومعاقل فوق رقعة بلاده . فلا يعودن أحد ممن انتقدوه أو لاموه الى انتقاده ولومه ، فهو فى مركز الدائرة وعلى قنة البشرية يفكر ويعمل ، ولا يعبأ بشىء بعد ذلك

* * *

وفى القبيلة التركية الكبرى يعيش كمال أتاتورك الآن وحده ، فلا أب ولا أم ولا زوجة ولا عيال ولا عقار ولا مال

له مرتب ضئيل يدفع منه ضريبة الدخل كما يدفعها أى فرد من أفراد القبيلة كانت له ضيعة فوهبها للاتراك

كل ذرة من ذرات جسمه ، وكل عنصر من عناصر عبقريته ، يعمل فى سبيل الترك ـ والترك وحدهم

لم يهبط الى مستوى البشر العادى إلا فى يومين اثنين : أولهما يوم تزوج « لطفية هانم » ، والثانى يوم ماتت أمه « زبيدة »

فأما « لطفية هانم » فقد أسرته بجمالها يوم دخل أزمير ظافراً ، وما كان لها أن تأسره لولا أنه كان خارجا من حرب الاستقلال كما يؤوب البدوى من تيه طويل فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء . . فروت « لطفية » من ظمئه وخففت عنه من ويلات الحرب وأهوالها . فلما استقرت الأمور فى نصابها ولم يعد كمال ذلك البدوى الصادى ، نبذ زوجته نبذ النواة وهجر فراش الزوجية حيث يستقر البشر ، وصعد الى القنة حيث الرجل يطيع ، والمرأة تطيع ، ولا شىء إلا الطاعة للزعيم

وأما أمه « زبيدة » فقد أحبها حقاً . ولعلها الشخص الوحيد الذى نبض له قلبه وتحركت عاطفته . « زبيدة » الأم الرءوم التى أحبها كمال الحديد الجليد ولم يعص لها أمراً . « زبيدة » التى كانت تؤمن ـ وابنها مصطفى فى حجرها ـ بأن الخليفة يملك قوة سبعة من الاولياء ، فأصبحت فى أخريات أيام حياتها تؤمن بأن ابنها وحده يملك قوة سبعة من الجبابرة . . « زبيدة » هذه قضت نحبها . . فانقطع بموتها آخر خيط كان يربط كمالا بالبشر وعواطف البشر

خاتمة

الدائرة الكبرى ما زالت تدور

وما أسرع ماتدور !

انى لا أكاد أرى الجهاز الجبار ذا الاذرع الست

وكل ما استطيع أن اتبينه خلال الدوامة الهوائية الكبرى مارد جبار لا يزال كما كان وحيثما كان حديدا جليدا ، فأقول : « لعله كمال أتاتورك »

obeikandl.com

obeikandl.com

مراجع الكتاب ومصادره

مراجع انجليزية :

Memoirs of Halidé Edib, London 1926.
The Memories of Ismail Kemal Bey, London 1920.
Memories of a Turkish Statesman, by Djemal Pasha, London 1919.
The Turkish Empire, by Lord Eversley, London 1918.
The Turkish Empire from 1288-1916, by Lord Eversley. And from 1914-1922, by Sir Valentine Chirol, London 1923.
The Ottoman Empire, 1801-1913, by William Miller, London 1913.
Turkey, by Arnold J. Toynbee & Kenneth P. Kirkwood, London 1926.
A short History of the Near East, by William Stearns Davis, London 1923.
Life of Abdul Hamid, by Sir Edwin Pears, London 1917.
Turkey in Travail, by Harold Armstrong, London 1925.
Turkey, the Great Powers & the Bagdad Railway, by Edward Mead Earle, London 1923.
The Turks and Europe, by Gaston Gaillard, London 1921.
The Powers and the Turks, by Sir George Greenwood, 1923.
The Eastern Question, by J. A. R. Mariott, London 1918.
The Turkish Problem, by Count Léon Ostrorog, London 1919.
The Struggle for Power in Moslem Asia, by E. Alexander Powell.
The Western Question in Greece & Turkey, by Arnold J. Toynbee, London 1922.
The Holy War in Tripoli, by G. F. Abbot, London 1912.
The Turco-Italian Wars and its Problems, by Sir Thomas Barclay, London 1912.
With the Turks in Tripoli, by E. N. Dennett, London 1916.
Hellas and the Balkan Wars, by D. J. Cassavetti, London 1914.
The Struggle for Scutari, by M. E. Durham, London 1914.
Fourty Years in Constantinople : 1873-1915, by Sir Edwin Pears, London. 1915.
Gallipoli, by Masefield.
The Dardanelles Commission's Final Report, London 1919.
Gallipoli Diary, by Sir I. Hamilton, London 1920.
Five Years in Turkey, by Liman Von Sanders, London 1928.
War Memories of the Dardanelles, by E. Ashmeed Bartlett.
British Official History, by C. P. Aspinall, London 1928.
An Englishman in Angora, by Grace Ellison, London 1923.
Turkey To-Day, by Ellison.
Mustafa Kemal, by Wortham.
Grey Woolf, by H. C. Armstrong, London 1932.

obeikandl.com

مراجع فرنسية :

Le sort de l'Empire Ottoman, par A. Mandlestan, 1917.
La Révolution Ottomane, par Youssouf Fehmi, Paris 1911.
La Jeune Turquie et la Révolution, par A. Sarrou, Paris 1912.
La Turquie à la Guerre, par J. Aulneau, Paris 1915.
La Mort de Stamboul, par Victor Bernard, Paris 1913.
La Révolution Turque, par Victor Bernard, Paris 1909.
Cent Projets de Partage de la Turquie, par T. G. Djuvara, Paris 1914.
La Turquie, l'Allemagne et l'Europe jusqu'à la Guerre Mondiale, par Général M. Moukhtar Pacha, Paris 1924.
Les Balkans en Feu, par R. Poincaré, Paris 1912.
Histoire de la Guerre Italo-Turque, par un Témoin, Paris 1912.
La Guerre Turco-Balkanique, par Colonel Brevete Boucabeille, Paris 1912.
Journal du Siège d'Adrinople, par G. Civilli, Paris 1913.
La Tragédie des Dardanelles, par Delage Edmond, Paris 1931.
Angora, par Jean Schlicklin, Paris 1922.
Dictateurs et Dictatures, par le Comte Sforza, Paris 1931.
Le Visage Nouveau de la Turquie, par Eugène Pittard, 1931.
La Turquie Contemporaine, Ankara 1935.
Dictateurs d'aujourd'hui, Henri Bernaud, 1933.
La Turquie dans le Monde, Robert de Bischoff, Paris 1936.

مراجع ومصادر تركية وعربية :

— عبد الحميد ثانى ودور سلطنتى ، حيات خصوصية وسياسيه‌سى : استامبول ١٣٢٧ هـ

— عثمانليلر محاربة لرينى ناصل غائب ايتدلير ؟ شيمدى ناصل تلافى وترقى ايده بيليرلر ؟ عادل نامى : استامبول ١٣٣١ هـ

— جناق قلعة . محررى غرانويل فورتسكيو ، مترجمى رحمى : استامبول ١٣٣١ هـ .

— عثمانلى اردوسنك أسباب مغلوبيتى . واتحاد وترقى جمعيتى سياستى . جمال الدين هجرى : استامبول ١٣٢٩ هـ

— عثمانلى اردوسنك أسباب مغلوبيتى . احمد حمدى : القاهرة ١٩٣٣

— ادرنة سقوطنك إيج يوزى . جلادت بدرخان ـ كامران بدرخان : استامبول ١٣٢٩ هـ

١٩١٢ : بلقان حربنده . محمد على نزهت : استامبول ١٣٣١ هـ
— أوجنجى قول أردونك وايكنجى شرق اردوسنك محاربانى . محمود مختارباشا : استامبول ١٣٣١
— خاطرات نيازى . أحمد نيازى : استامبول ١٣٢٦
— نطق
— نطق محتوياتنه عائد وثائق : غازى مصطفى كمال طرفندن ـ انقره ١٩٢٧
— مذكرات الغازى مصطفى كمال باشا (مترجمة عن التركية)
Tarih V vols : Istanbul 1931.

obeikandl.com

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٢٥	الصدر الاعظم	وزير الحربية
٣٠	٢٥	وتلت ذلك هزيمة المارن	وسبق ذلك الزحف على باريس
٣١	٢	١٨ اكتوبر	٢٨ اكتوبر
٤٦	٢	يقترضه من جمال	يبيع به خيوله لجمال
٤٨	٤	يا صاحب السمو	يا صاحب السعادة
٦٣	٥	انطاكية	انطاليا
٦٩	١٨	ادنه	ادرنة

oberkandl.com